الفصل الثاني

العقيدة اليهودية ورحلة التصور اليهودي للإله

obeikandl.com

obeikandl.com

العقيدة اليهودية وعنصرية الدين

كيف يمكن أن يوصف الدين بأنه دين عالمي أو أنه دين عنصري إقليمي؟

لقد رأينا في كثير من عقائد الشعوب ـ خاصة ـ العقائد البوذية والبراهمية أنها انتقلت من بلد إلى آخر، وشكل معتنقوها أكثرية أحياناً في بعض البلدان.

فانتقال عقيدة من موطنها الأصلي إلى أقطار أخرى، يعني أن أفكارها شكلت قبولاً لدى أكثر من مجموعة بشرية، بما فيها من تعاليم فكرية، ومعاملات إنسانية يرتضيها البشر عن قناعة، وبسبب وجود طموحاتهم النفسية والفكرية فيها. وبمعنى آخر بسبب كون هذه العقيدة حققت لهم نوازعهم على شتى مناحيها.

لقد وجدنا البوذية تنتقل من الهند إلى كثير من بلدان جنوب شرق آسيا وشرقها مثل فيتنام وكوريا وتايلاند وسيريلانكا وبورما وحتى اليابان والصين.

و الواقع أن هذه المناطق انسجمت مع ما طرحه بوذا والبوذية من أفكار أخلاقية، وسلوكيات اجتماعية متميزة، لم يكن التركيز فيها على أهمية الخالق، وعلاقته بالإنسان بقدر ما ركزت على الجانب الأخلاقي والمسلكي الاجتماعي.

و ليس غريباً هذا الانتشار لعقيدة مثل البوذية. فالظروف الفكرية، والحياة الاجتماعية، ساهمت بشكل واضح في انتشارها. فكانت ردة فعل على ما آلت إليه العقائد السابقة بين تلك الشعوب، وما آل إليه التعسف البشري ضد الإنسان. وخاصة الطبقات الفقيرة المضطهدة.

لقد تجاوزت البوذية حدود منشئها، وبلدها الأصلي ولكنها لم تنتشر بشكل عالمي. فهي تتجمع في منطقة إقليمية واضحة. لم تستطع مثلاً الوصول إلى إفريقيا، فلا نجد مثلاً بوذياً واحداً اعتنق البوذية في الوطن العربي وآسيا الغربية

وإفريقيا. على الرغم من أن كل الدراسات تشير إلى أن بداية البوذية كانت قبل المسيح بـ 600 عام وقد صنف العلماء البوذية على أنها عقيدة وضعية ليس للسماء علاقة بها. وهم حين يدرسون تعاليم بوذا يجدون فيها نوعاً من الأخلاقية والفكر، لا تنحصر لشعب دون شعب. وكانت تعاليمها مطروحة للإنسان أي إنسان. دون تمييز بين الناس، بل يرون فيها تمرداً على تعاليم الهندوسية الداعية إلى وجود نظام للطبقات، والتمييز بين البشر وعلى الرغم من ذلك كله، فإن عشرات الملايين يعتنقون البوذية دون أي استناد على إقليمية العقيدة أو انحصارها أو ادعاء أحد بأنه وحده صاحب الحق باعتناقها.

و نستطيع القول: إن البوذية ليست عقيدة عالمية. ولكنها أيضاً ليست عقيدة ضيقة محدودة أو عنصرية. فهي تجاوزت منشأها واعتنقها مئات الملايين من البشر. و لا شك أن حديثنا عن عالمية الدين أو إقليميته ينطبق إلى حد ما على العقائد السماوية وغيرها من العقائد. ولكن هذه العقائد ارتبطت بالسماء كما قلنا. ومن الطبيعي إذا ما دققنا النظر في المسيحية والإسلام، وجدنا أنهما انتشرتا في كافة أنحاء العالم وقلما تجد بلداً يخلو منهما حتى أقصى جنوب شرق آسيا أو حتى أمريكا شمالها وجنوبها.

ولا شك أن الدعوة للعقيدة كان لها الدور في الانتشار. وبغض النظر عن أساليب الدعوة والتبشير والتنصير وطرقها المختلفة والمتعارضة أحيانا مع حقيقتها. رغم ذلك كله فإن المسيحية والإسلام عقيدتان عالميتان يعتنقهما مئات الملايين من البشر المنتشرين في كافة أنحاء الأرض.

وفي هذا الإطار لا بد أن نذكر أن المسيحية والإسلام ترحبان بكل إنسان يعتنقهما مهما كان جنسه ولونه، ولم تحصرا الدين في قومية واحدة أو شعب واحد، إنما انفتحتا على كل الناس دون أي اعتبار للعرق أو اللون أو الجنس.

وعلى الرغم من أن اليهودية بدأت كدعوة منذ أن أنزلت التوراة الحقيقية على موسى عليه السلام، إلا أن أتباع هذه العقيدة يقلون ويقلون أمام البوذية

مثلا. على الرغم من أن اليهودية رسالة سماوية في منشئها وأصلها، والبوذية عقيدة وضعية ليس لها علاقة بالسماء.

والواقع أن التعاليم التي دونها أتباع اليهودية، تظهر جانبا من جوانب عدم الانتشار، فحسب التوراة المدوَّنة، يعتقد اليهود أنهم شعب الله المختار، انتقل من صفوة البشر إلى الصفوة الصفوة. فلذلك لا يرضى المؤمنون بهذا الاختيار أن يدخل اليهودية أي من الناس. وبلغ اعتقادهم بسمو عنصرهم أنهم يترفعون عن الأجناس البشرية الأخرى. ولا يندمجون فيها. بل إنهم ينكرون المساواة مع الذين يشتركون معهم في النسب إلى النبي إبراهيم عليه السلام.

(ومن أجل ذلك لم يسعوا إلى التبشير بدينهم، وأنفوا من اشتراك غيرهم في شرف الانتساب إلى إبراهيم وحصروا هذا الشرف في نسل يعقوب وحده، واعتبروا باقي البشر همجا أو شبه أنعام (غوييم) خلقهم الله لخدمتهم وليكونوا تحت إمرتهم)[1].

وعلى الرغم من عدم قبول اليهود غيرهم في عقيدتهم فإن ظروفا معينة ساهمت في اعتناق عدد من أفراد الشعوب عقيدة اليهودية، فوجدناها انتشرت في أجزاء من اليمن نكاية بالدولة الرومانية المسيحية والإمبراطورية الحبشية. وذلك في عهد ذي نواس، وكذلك فقد هودت عناصر آرية بسبب ظروف خاصة كتهوّد الصقالبة والجرمانيين وسكان سواحل بحر البلطيق إضافة للخزريين، الذين شكلوا النواة الحقيقية ليهود شرق أوروبا. وقد اعتبرت الصهيونية كل من يؤمن بأفكارها، هو من الشعب المختار ولكن وللحقيقة نرى الآن انكفاء اليهودية على نفسها لما فيها من تعاليم تنافي الحس الإنساني العالمي. وانكفأ أتباعها. وظل أعداد معتنقيها لا يتجاوز العشرين مليونا في العالم. وعلى مر التاريخ لم يكن اليهود منفتحين على الآخرين، ولاسيما منذ تشتتهم زمن الرومان أي قبل حوالي ألفي

---

(1) محمد علي علوبة. فلسطين والضمير الإنساني. كتاب الهلال ص 57.

عام. وقد عرف العالم بكل مجتمعاته حارات اليهود المغلقة ـ الغيتو ـ. هذه الحارات التي انتشرت في أوروبا الشرقية بشكل خاص، وفي بعض المناطق العربية بشكل عام. وما كانت تقام هذه الحارات المغلقة، لولا نظرة اليهود إلى الآخرين. النظرة المبنية على الاختلاف في الطبيعة والماهية والاعتقاد.

قلنا: لقد بدأت اليهودية منذ نزول التوراة الحقيقية على النبي موسى عليه السلام، وحين ندقق في طبيعة النص التوراتي نرى أن كتبة التوراة يصرون على أن موسى وهارون وبقية الأنبياء الذين ورد ذكرهم في التوراة هم خاصّون لبني إسرائيل. ولم تشر التوراة إلى أي من الأنبياء الذين دعوا إلى ديانة التوحيد، من غير أبناء إسرائيل. وتظهر تعاليم أنبياء التوراة تعاليم خاصة جدا لمجموعة من البشر ولا يمكن أن يتجاوزوها.

فحسب النص التوراتي يظهر نضال النبي موسى عليه السلام لأجل غاية واحدة. وهي رفع الظلم عن بني إسرائيل، والسماح لهم بالخروج من مصر. وليس هناك إشارة لدعوة، أو طلب نبوي من موسى باتباع عقيدة التوحيد ونشرها، أو قبول أي فرد من شعوب المنطقة في هذه العقيدة أو إطارها.

فنحن نعرف أن الدعوة لأي عقيدة تتخذ طريقين كبيرين، إما طريق الترغيب أو طريق الإكراه والترهيب. إما طريق الهداية والدعوة السلمية أو طريق العنف والإجبار. غير أن أتباع اليهودية وحسب النص التوراتي التاريخي لا نجدهم يدعون للعقيدة اليهودية، لا عن طريق الهداية والدعوة السلمية، ولا حتى عن طريق العنف والإرهاب. فهم لا يريدون نشر هذه العقيدة لأنها عقيدة بني إسرائيل وحدهم. هم يريدون حصرها في هذه المجموعة البشرية التي خرجت من سيناء خشنة الطباع. ويريدون إبادة كل من يجدونه في الأرض أمامهم، دون أن يأخذوا بنشر دعوتهم. ومن هنا نجد انحصار العقيدة اليهودية انحصارا شديدا على أتباع التوراة كما يتصورها الكتبة فيما بعد.

وهذا الانحصار يدلل بشكل قاطع على طبيعة النفسية التي كان عليها

اليهود أيام تدوين التوراة. أي أثناء وجود أتباع اليهودية في السبي البابلي. وقد عكس مدونوها وهم يدونون الأحداث الماضية الخاصة بأجدادهم جنوحهم الشديد نحو عنصرية العقيدة وعنصرية الاتّباع.

لقد ارتبطت اليهودية بشعب معين، وهي لهذا تشبه الهندوسية في أنها ديانة مغلقة أي ليست من ديانات الدعوة، وليست إلا تعبيرا طبيعيا لشعب خاص وجزءاً من ثقافة اجتماعية لا تقبل الغرباء[1]

والذي يقرأ الأسفار كلها لا يجد فيها ما يدل على أن موسى أو بني إسرائيل كانوا مأمورين بدعوة غيرهم إلى ديانتهم. وكل ما في الأسفار منصبٌّ على كون الديانة اليهودية ديانتهم الخاصة وكون الرب ربهم الخاص[2].

ويقول العالم بري: لم يكن للعبرانيين تصور للعالم. ولهذا لم يصلوا إلى تصور إله غير محدود. ولقد كان عالمهم محدودا وكان إلههم محدودا كذلك[3].

وأسفار التوراة جميعها تفصح عن هذه العنصرية التي تتميز بها هذه العقيدة اليهودية. والواقع أن الديانة المتقوقعة المنحصرة لدى اليهود، أدت إلى دمج فكرة القومية بالدين. ومنذ ولدت الصهيونية السياسية في القرن التاسع عشر وهي تعمل جاهدة على تكوين شخصية اليهودي القومية. هذه الشخصية المختارة كان لا بد لها من أرض تأخذ بها أبعادها. والأرض المختارة أيضا حددها الرب في وعوده المتكررة لأنبياء إسرائيل ومن هنا كانت اليهودية قومية. كما كانت القومية اليهودية دينية. فلا فرق عند اليهودي بين دينه وقوميته. ولا معنى لأحدهما من دون الآخر، لأن هذين المقوِّمين يكوِّنان شخصيته الدينية والدنيوية. ومخطيء من يقول: إن اليهودية دين والصهيونية أرض لا خلط بينهما. أقول مخطئ من يدعي هذا القول، لأن الدين

---

(1) احمد شلبي. مقارنة الأديان اليهودية. ص 186.

(2) محمد عزة دروزة. بنو إسرائيل في أسفارهم جزء 1 ص 73.

(3) بري. أساطير العالم. ص 31 نقلا عن احمد شلبي. اليهودية.

اليهودي يتضمن جميع المبادئ الصهيونية. والصهيونية متجذّرة في الدين اليهودي. لا وجود لحدود فاصلة بين شريعة اليهود الدينية وبين مقومات قوميتهم، لأن الشريعة اليهودية تتلخص في تمجيد عنصرهم. وتقديس عرقهم. وتبشيرهم بأنهم شعب الله المختار ووعدهم بأرض يخطط حدودها الرب.

فاليهودية هي الديانة القومية للشعب اليهودي. والصهيونية تنحصر في تأمين أرض لهذا الشعب، أو قاعدة إقليمية لهذه القومية[1].

اليهودية. النشأة. البيئة

من المتعارف لدى كافة الدارسين، أن تدوين التوراة قد تم بشكل نهائي أيام السبي البابلي. وقليل من الباحثين لم يتعرض لمشكلة تدوين التوراة. وبشكل عام فمسألة تدوين التوراة، أصبحت من المسائل التي لا تحتاج لجدال طويل أو مناقشة دائمة. فطبيعة التوراة نفسها، طبيعة الأسفار التسعة والثلاثين تفصح عن نفسها بشكل واضح.

فأسفار موسى الخمسة. التكوين والخروج والتثنية والعدد واللاويين، اعتبرت أسفاراً أنزلت على النبي موسى عليه السلام أيام تلقي الرسالة السماوية. أما باقي الأسفار فقد ارتبطت بالأحداث التاريخية التي ارتبطت باليهود خلال حوالي سبعمائة سنة أو تزيد. وكما أوردت التوراة، فقد مات النبي موسى عليه السلام وانقطعت صلته بالسماء، وجاء سفر يشوع ليسجل حسب نص التوراة ملحمة العبور إلى أرض فلسطين. ملحمة الإبادة البشرية لشعب المنطقة الكنعانية.

ويبدأ تسلسل الأحداث ليخترق السنين، ويسجل تاريخياً ما جرى لهذه الفئة وعقيدتها من تقلبات وتغيرات وتطورات.

ولكن يبدو أن تناقضاً واضحاً يقع أكثر الباحثين فيه حول بداية اليهودية ونشأتها. فمن الباحثين من يعتبر أن جذور اليهودية بدأت منذ زمن النبي إبراهيم

---

(1) جرجي كنعان. الوثيقة الصهيونية في العهد القديم. ص 154.

عليه السلام. بينما راح بعضهم يقول: إن بداياتها نشأت منذ النبي موسى عليه السلام. وآخرون يرون أن اليهودية نشأت كعقيدة بعد موسى بمائة وخمسين عاماً. واختلفت الآراء حول ذلك، باختلاف الباحثين، واختلاف ثقافاتهم وخلفياتهم الفكرية والدينية واختلاف أهدافهم وغاياتهم.

ولو عدنا إلى نصوص التوراة ونصوص القرآن الكريم لوجدنا أن هذه العقيدة لم تكن موجودة قبل موسى. وباعتبار أن الأسفار الخمسة جاءت خاصة بالنبي موسى ومن اتّبعه. فهي في منشئها عقيدة توحيدية.

وهناك آيات قرآنية كثيرة تشير بوضوح إلى نزول التوراة على موسى وليست على غيره. ومع نزول هذا الكتاب، تبينت العقيدة اليهودية، وظهرت معالمها وآفاقها وتشريعاتها التعبدية والمعاملات فيها. وبذلك تكون اليهودية أول رسالة سماوية كبرى سبقت المسيحية والإسلام وذلك حسب قول الإنجيل والقرآن الكريم.

والتوراة التي تفصّل في الأحداث التاريخية، تعطينا مؤشرات على زمن نزول التوراة على النبي موسى. وتعطينا ملامح واضحة لزمن هذا النبي. وقد اتفق الباحثون بشكل عام على أن النبي موسى وجد حوالي 1300 ق. م تزيد قليلاً أو تنقص وهذا يعني أن المسافة الزمنية بين موسى وعيسى هي 1300 عام. أما الزمن الفاصل بين عيسى ومحمد عليه الصلاة والسلام هو على تقرير المُجمعين والمتفقين على التواريخ هو 570 عاماً. فإذا أضفنا 570 سنة إلى 1300 سنة فإن الفارق الزمني بين اليهودية والإسلام هو حوالي 1870 عاماً على أقرب تقدير.

ويشير القرآن الكريم إلى عدة سمات تاريخية لعصر موسى والتوراة الأصلية:

- ❖ موسى يلتقي بالنبي شعيب نبي مدين ويتزوج من ابنته وذلك حسب قول المفسرين.
- ❖ موسى يأمر بنشر دعوته عند فرعون. ومن خلال معطيات القرآن الكريم نجد أن فرعون مصر قد بلغ ذروته من القوة والعظمة زمن موسى.
- ❖ قوم موسى يمكثون عشرات السنين في سيناء.

❖ وجود أقوام محيطة بسيناء ومنهم من وُصفوا بالجبارين .

❖ قصة البقرة التي جاء ذكرها في القرآن الكريم ودلائلها .

❖ الطلب من موسى أن يخاطب ربه لتنتج الأرض بعض المزروعات كالثوم والقثاء .

❖ سيناء وجبل حوريب .

فهذه المعطيات البيئية والتاريخية والجغرافية ، تفتح للباحثين أبواباً تاريخية ، يستطيع أن يقاطعها بمعطيات علم التاريخ والدراسات التاريخية كي يصل إلى عصر موسى وزمن نزول التوراة عليه .

الواضح من هذه المعطيات أن الفراعنة بلغوا شأناً عالياً في عقائدهم وقوتهم . فلديهم عبيد مسخَّرون . وبنو إسرائيل جزء من هؤلاء المسخَّرين والمستعبدين . وهذا ما دلت عليه آيات القرآن الكريم . وما دلت عليه نصوص التوراة . وما دلت عليه مخطوطات تل العمارنة والآثار المصرية الأخرى .

وإذا نظرنا إلى المحيط السكاني آنذاك وجدنا أن للفراعنة عقائد وثنية متعددة . وكذلك الأمر بالنسبة إلى الأقوام التي سكنت سيناء ، ومحيط الأردن ، وسكان أرض كنعان ، ولهذه الأقوام عقائدها . وبنو إسرائيل الذين لم ينفصلوا عن هذا المحيط ، حملوا معهم عقائد الشعوب والأقوام المنتسبة لهذا المحيط . ولا شك أن الصراع بين الوحدانية والوثنية ، هو صراع قائم منذ آدم عليه السلام . وشعيب الذي يلتقي بموسى عليه السلام ، كان موحدا في قومه الذين رفضوه ورفضوا عقيدته التوحيدية . وعلى الجانب الآخر ، كان الجبروت الفرعوني يرسّخ الوثنية والتعددية . بينما كان الشعب العربي الكنعاني ، يحاول أن ينتقل نقلة نوعية من التعددية إلى التوحيد . رغم مظاهر الوثنية لدى بعض قبائله . في هذا الجو المحيط ، لم يكن لبني إسرائيل وبعض الفئات الأخرى التي آمنت بموسى وبعقيدته ، أي علاقة أو اطلاع بعقائد ما بين النهرين آنذاك . ونستطيع أن نحصر في هذه الزاوية الفراعنة وعقائدهم . وبطون الشعوب الكنعانية الساكنة شمال سيناء

وفلسطين، وبعض القبائل العربية التي تقطن بعض مناطق شرق الأردن كمدين وموآب وعمون.

وهذا ما يساعدنا في القول: إن نشوء اليهودية على يد موسى برز في هذه البيئة وبين هذه القبائل وهذه العقائد.

وعلى هذا التأسيس، يمكن دراسة نظرية الإنسان للعقيدة والخالق. ومن ثم يمكن دراسة المؤثرات الواقعية في العقيدة اليهودية أثناء تطورها بعد موسى. وقد تطرقنا في بداية هذا الفصل إلى عقائد كل من الكنعانيين والفراعنة والبابليين كما تطرقنا إلى عقائد شعوب أخرى كالهندوسية والبوذية وبعض عقائد الشرق الأقصى وفارس وما لها من علاقة بمفهوم الله.

ويمكن لنا ونحن ندرس نشأة اليهودية أن نسلط الضوء على عقائد الفراعنة والكنعانيين وعقائد بطون الشعوب العربية المنتشرة في شرق الأردن، وذلك أثناء بروز العقيدة اليهودية استنادا على ما قالته نصوص التوراة، وما يمنحنا إياه القرآن الكريم من إشارات حول ذلك.

تورد التوراة أن موسى عليه السلام عاش طفولته في مصر. ثم هرب منها في شبابه باتجاه سيناء. والتقى بالكاهن يثرون في مدين. ثم عاد إلى مصر، لإخراج بني إسرائيل من عذاب فرعون. وعند خروجه إلى سيناء، كانت تسكن المنطقة قبيلة عربية كنعانية. ثم في سيناء أنزلت التوراة على موسى. وعلى حدود فلسطين الجنوبية مات موسى دون أن تطأ قدمه أرض فلسطين.

والمدة التي مكث فيها بنو إسرائيل في سيناء وعلى أطراف أدوم، أبرزت عقائدهم بشكل جيد. وكانت سيناء مسرح تطور هذه العقائد. ولا سيما المرتبطة بطبيعة التصور العقيدي للإله. وحيثيات الواقع تدل بشكل كبير، على مدى ما استلبه بنو إسرائيل من عقائد الشعوب التي عاصرتهم، إنْ كان ذلك في مصر وأطرافها أو في شمال سيناء وجنوب الأردن.

الشعب المختار والإله القبلي المختار

استند المفهوم الديني لدى اليهودية على مقولة شعب الله المختار. وقد ورد هذا المستند في كثير من نصوص التوراة .

تقول التوراة: (وأنا أخرجكم من تحت أثقال المصريين وأتخذكم لي شعباً وأكون لكم إلهاً) . خروج 6/ 3

وفكرة الشعب المختار هي من اختراع سفر الإشتراع إضافة لما جاء في الأسفار الأولى من إشارة إلى الشعب المختار. وسفر الإشتراع، يلغي كل ما اقترفه الإنسان بحق الله (الخطيئة الأصلية التي تمرد فيها الإنسان على طاعة الله ـ مقتل هابيل على يد قابيل ـ ادِّعاء الإنسان بمساواة الله حينما شيد برج بابل ليجئ الطوفان ويمحو كل هذه المعاصي . . إلخ.

وتقول التوراة: (فقال الله بل سارة امرأتك تلد لك إبنا وتدعو اسمه إسحق وأقيم عهدي معه عهداً أبدياً لنسله من بعده). تكوين إصحاح 18 ـ 19.

وجاء في سفر الخروج: (وأتخذكم لي شعباً وأكون لكم إلهاً) إصحاح 6 ـ 7

وقد أسس بنو إسرائيل تصورهم العقائدي للإله على أساس أنهم شعب خاص لإله، هذا الإله اختارهم لوحدهم ليكون لهم دون غيرهم .

من هذا المنطلق نسير مع رحلة التصور الإسرائيلي لهذا الإله الخاص .

في الإصحاح الثالث من سفر الخروج يبدأ كاتب التوراة بتصوير الإله، وتطور علاقته مع بني إسرائيل. فالله عندما يتجلى لموسى عليه السلام يقول له: (أنا إله أبيك إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب) 3 ـ 6. وعندما يحاور موسى ربه يقول فإذا قالوا لي ما اسمه، فماذا أقول لهم. فقال الله لموسى أهيه الذي أهيه وقال هكذا تقول لبني إسرائيل أهيه أرسلني إليكم. وقال الله لموسى هكذا تقول لبني إسرائيل يهوه إله آبائكم أرسلني إليكم. هذا اسمي إلى الأبد) خروج 3 ـ 13 ـ 14 ـ 15 .

فالحديث الحِواري القائم بين موسى وربّه يبرز ثلاث تسميات لله. الله. أهيه.

يهوه، فاسم الله معروف بشكل متواتر في العقائد كلها ولا سيما الكتابية منها. ولكن إذا نظرنا إلى المصطلحين الآخرين نجد غرابة ما تكتنفهما. فأهيه. ويهوه في صيغة المضارع الحاضر أي الكائن الآن ولا يفهم من التعريفين سوى ذلك.

ويبدأ تخصص الله لبني إسرائيل منذ هذا السفر. حيث يخصهم بالنسبة. وبالإضافة، تقول التوراة: هكذا يقول الرب إله إسرائيل أطلق شعبي) خروج 5 ـ1 وتقول: فقالا: (إله العبرانيين قد التقانا) خروج 5 ـ 3.

فالإله هو خاص هنا لبني إسرائيل. وهذا ما سيكون المحور المهم في العقيدة اليهودية فيما بعد، إذ أن الإله إله فئوي. وفي هذا الإطار يكون الإله العبراني عبارة عن تصوير بشري بحدوده وصفاته. وليس هو إلهاً مجرداً له خصوصيته المنفصلة عن التصور الضيق أو التصور الفئوي.

وقد ربط العبرانيون الإله المتصوَّر بوعد قطعه على نفسه بمنحهم أرضاً يسكنون فيها. وهذه العلاقة تجسد الطموح الذي كان عليه زعماء بني إسرائيل، وهم في الأسر البابلي أيام تدوين التوراة. ويأتي أمر الوعد في سياق خطاب النبي موسى لبني إسرائيل الذين بدأوا التمرد عليه منذ اللحظات الأولى للقائه بهم بعد عودته من سيناء في الإصحاح الثامن من سفر الخروج يرد: (وقل له هكذا يقول الرب أطلق شعبي ليعبدني) 225

وفي الإصحاح التاسع: (وقل له هكذا يقول الرب إله العبرانيين أطلق شعبي ليعبدوني) 2 خروج

وجاء في الإصحاح 24 من الخروج (ورأوا إله إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة...) 9

وفي سفر التثنية يرد: (الرب إلهنا كلمنا في حوريب) 1 ـ 61

ويرد: (الرب إله آبائكم يزيد عليكم) 1 ـ 12

ويرد: (كما أمرنا الرب إلهنا 1 ـ 19 ـ الذي أعطانا الرب إلهنا) 21

ويرد: (وعصيتم قول الرب إلهكم) 9 ـ 26

ويرد: (الرب إلهنا قطع معنا عهداً في حوريب) تثنية 5 ـ 2

وترد عبارة الرب إلهك أكثر من خمسين مرة في سفر التثنية وحده

وفي سفر يشوع 8: 30 (حينئذ بنى يشوع مذبحاً للرب إله إسرائيل في جبال عيبال)

وفي سفر يشوع 10: 4 (فضرب يشوع كلأرض الجبل والجنوب والسهل والسفوح وكل ملوكها لم يبق شارداً بل حرم كل نسمة كما أمر الرب إله إسرائيل)

وفي يشوع 10: 4 (لأن الرب إله إسرائيل حارب عن بني إسرائيل)

وفي يشوع 23: 3 (لأن الرب إلهكم هو المحارب عنكم)

وفي يشوع 32: 22 (إله الآلهة الرب إله الآلهة الرب هو يعلم وإسرائيل سيعلم).

في يشوع 32: 22 (مالكم وللرب إله إسرائيل).

يشوع 23: 1 (لأن الرب إلهكم هو المحارب عنكم).

يشوع 24: 1 (هكذا قال الرب إله إسرائيل).

يشوع 24: 23 (فالآن انزعوا الآلهة الغريبة التي وسطكم وأميلوا قلوبكم إلى الرب إله إسرائيل).

فمن خلال هذه النصوص، يؤسس كتبه التوراة خصوصية الإله فهو إله إسرائيل دون سواهم. وهذا التأسيس بني عليه التصور التوراتي كله. ففي كافة الأسفار تظل خصوصية الإله الإسرائيلي مستمرة.

وتلعب هذه الخصوصية دورها العقيدي والنفسي في الشخصية اليهودية. فالدور العقيدي يعني تماماً رفض آلهة الشعوب الأخرى. صحيح أن الشعوب التي عاشت في فترة بروز اليهودية في غالبيتها شعوب وثنية، ولكن العقيدة اليهودية ترفض أن يكون الله الخاص بها هو ذاته الله في الرسالات الأخرى كالمسيحية والإسلام. وعلى المستوى النفسي فقد بنى هذا الاتجاه في الشخصية اليهودية تماهياً

واضحاً بين الله والفرد اليهودي. حيث سنرى في نصوص أخرى أن اليهودي يأمر الله فيطيعه. فيصبح في حالة من الحالات هو الله والله الفرد. وهذا ما يشير لنا بوضوح إلى تأثر اليهودية الكبير بالعقائد الوثنية السائدة آنذاك.

وعندما نتذكر أن تدوين التوراة قد تم أيام السبي البابلي ندرك أن هذا التدوين ما كان ليتم دون تأثير المأثورات العقيدية البابلية والكنعانية وغيرها في العقيدة اليهودية.

فلجميع شعوب المنطقة آلهة قومية خاصة. وهذه هي طبيعة العقائد في الشعوب قبل الرسالات السماوية.

ففي بابل كان الإله الرئيسي مردوخ وقد أشرنا لذلك في صفحات سابقة وفي كنعان كان الإله الرئيسي إيل وفي مرتبة ثانية كان الإله بعل. وفي المدن الهامة أيضاً وجدت لدى الشعوب آلهة خاصة مفضلة على غيرها من آلهة الشعوب. فأهل بيسان كان إلههم الخاص (داجون). وفي نابلس وجد الإله بعل بريث (رب العهد) والإله ملكوم إله العمونيين. وكموش إله المؤابيين. ومولك أيضاً للعمونيين. ويبدو أن المنطقة التي تنقسم إلى مدن وقرى ومناطق لم تتوحد في عقائدها. ومجاراة من قبل بني إسرائيل لهذه الشعوب فقد خصصوا لهم إلها يختلف عن آلهة الشعوب كما يختلف بنو إسرائيل في تصورهم وعقائدهم ومسيرة حياتهم عن بقية الشعوب أو بقية الأقوام.

إله بني إسرائيل كما أراد كاتبوا التوراة تصويره هو إله محلي وليس إلهاً عالمياً. وهذا طبيعي قياسا للمحيط الذي عاشوا فيه. ولكن طبيعة هذا الإله، تنسجم مع طبيعة النفسية التوراتية، النفسية اليهودية، النفسية البدوية وليست طبيعة النفس الزراعية المستقرة. لقد عاش بنو إسرائيل حياتهم متنقلين غير مستقرين. وهذا التنقل لا بد له من إله متنقل أيضاً.

إننا نلاحظ أن الآلهة المحلية لبقية سكان المنطقة تستقر في معابد المدن والقرى

لأن السكان ذاتهم مستقرون في أرض، مرتبطون بها. أما بنو إسرائيل فلم يرتبطوا بأرض ولذلك كان إلههم متنقلا غير مستقر لا في طبيعته ولا في صفاته.

وحين سمحت لهم الظروف بعد تسرُّبهم إلى فلسطين، وتأسيس ما يسمى مملكة داود وسليمان، فقد ارتبطوا ارتباطا محدودا بهيكل يهوه. وقد اعتبروا أن الهيكل هو مقر إلههم. وقد أصبح الإله الأوحد لهم بعد أن شركوا معه في عبادتهم آلهة وثنية كثيرة. لقد خص بنو إسرائيل أنفسهم بالإله الخاص بهم ولم يقبلوا أحداً من سواهم في عقيدتهم.

تقول التوراة: (أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر بيت العبودية. لا يكن لك آلهة أخرى أمامي) 20ـ 1 ـ 2

وهذا اعتراف توراتي، بأن إله اليهود لم يكن وحده إلها في هذا الوجود. وهذا يعني أن بني إسرائيل لم يعرفوا الإله الواحد إله الخلق أجمعين. لقد عبدوا إلها قوميا خاصا كما ذكرنا لا يقبل أحداً من الناس في عبادته سوى بني إسرائيل. تقول التوراة: (لا يدخل عمّوني ولا مؤابي في جماعة الرب حتى الجيل العاشر. لا يدخل منهم أحد في جماعة الرب إلى الأبد.) تثنية 23: 2

ولو لاحظنا عقائد الشعوب الوثنية آنذاك وجدنا أن لا موانع أمام أي من البشر في دخول عقائدهم. بل إننا نرى بعض الشعوب القوية التي اجتاحت المنطقة، فرضت عقائدها وآلهتها على الشعوب التي احتلت أراضيها. وهذا يرمز إلى قوة الشعوب المستندة إلى قوة معبودها.

وإذا ما رحنا نستطلع طبيعة الإله المعبود الذي فهمه أنبياء بني إسرائيل من خلال القرآن الكريم، وجدنا النقيض تماما. وجدنا الله الذي عرفناه من خلال ديانة الإسلام وعقيدة التوحيد الإسلامية.

يقول تعالى على لسان يوسف عليه السلام: ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا

كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : 37 ـ 40].

والنبي يوسف هو آخر الأنبياء من سلسلة إبراهيم الذين انتهت بهم التواريخ إلى توقف الأخبار أربعمائة سنة حتى ظهور موسى عليه السلام. وبمعنى آخر فإن النبي يوسف الموحد والذي عرف الله الواحد الأحد رب العالمين، انقطعت عنده هذه العقيدة ولم تظهر أية إشارة بعده إلى هذه العقيدة حتى ظهور موسى عليه السلام. وهذا يعني أن بني إسرائيل لم يدركوا عقيدة التوحيد بل اندمجوا بالعقائد المصرية، حيث عرفوا نمطاً آخر من الآلهة، هو نمط الآلهة القومية المحلية. والبعيدة عن الإله الواحد وعقيدة التوحيد.

ولهذا السبب نجد مفهوم الإله الذي استوعبه بنو إسرائيل، لم يكن ما يقصد إليه النبي موسى عليه السلام.

ويجيبنا القرآن الكريم على التساؤل الذي يقول: ما الذي كان يقصد به النبي موسى عليه السلام بمفهوم الإله.

تطالعنا الآيات القرآنية الكريمة بقولها: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الشعراء : 23ـ 28].

فالآيات توضح طبيعة الله في مفهوم النبي موسى وعقيدته التوحيدية. فالله ليس خاصاً ببني إسرائيل، إنما هو رب العالمين. خالق السماوات والأرض وما بينهما من نجوم وكواكب وإنسان وحيوان ونبات وجماد. وهو رب المشرق والمغرب وما بينهما، إنه رب البشر جميعا ما بين مشرق الكون ومغربه.

وهناك آيات قرآنية كثيرة تشير بوضوح إلى طبيعة فهم موسى لله سبحانه وتعالى. والمدقق في بعض الآيات القرآنية يكتشف أن الحوار الذي كان يجري بين النبي موسى وبني إسرائيل يدل بشكل واضح على أنهم لم يفهموا هذا الإله ولم يعترفوا به إلهاً للجميع بل هو إله موسى وحده، وليس لهم علاقة به.

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: 61].

ويقول تعالى: ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ [البقرة: 68]

وتتكرر هذه الآية. ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ [البقرة: 70]. وفي قوله تعالى: (ربك). عبرةٌ ودرسٌ. وقد تعني الكثير من المقاصد. ومن هذه المقاصد أن بني إسرائيل يفصلون بينهم وبين رب موسى، ولا يعتبرونه ربا لهم إنما هو خاص لموسى.

وفي بعض الآيات القرآنية إشارات واضحة إلى ما آلت إليه نظرة التوراتيين المنحرفين إلى الله القومي الخاص بهم. فالله لن يعذبهم، ولن يحاسبهم طالما هم شعب الله المختار. يقول تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 80].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: 111].

وهذا يدل بشكل واضح على أن الله القومي الخاص بهم يصنع لهم جنة خاصة بهم. وهذا طبيعي لأنه يترتب على البعد القومي الخاص للإله الذي تصوروه.

ويقول تعالى: ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾ [البقرة: 139].

فهم يؤمنون بإله يبعث الأنبياء من بني جنسهم، فإن بعث الله نبيا آخر ليس من بني إسرائيل فإن هذا الإله ليس هو إلههم. وقد أنزلت هذه الآيات لترد عليهم عندما بعث الله سبحانه وتعالى محمدا بن عبد الله نبيا ليس من بني إسرائيل، فهذا لم يكن في حسبانهم فرفضوا نبوته وجادلوا في اختيار الله له نبيا. حتى وصل بهم الحد إلى نكران الله الذي بعث محمداً ﷺ نبياً للعالمين.

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [المائدة: 18].

فما تصوره بنو إسرائيل هو أن الله خاص بهم. فهم أحباؤه لأنه لهم وحدهم. ولن يعذبهم كبقية البشر لأنهم شعبه المختار.

ولما كان الإله المتصوَّر إلهاً خاصاً فإن علاقته ببني إسرائيل تتمدّد وتتّسع لتشمل كل القضايا الخاصة ببني شعبه.

فنرى هذا الإله يقسم ميراث النبي إبراهيم قسمة غير عادلة. فيخصص بالميراث إسحق وابنه يعقوب وينفي هذا الميراث عن إسماعيل وأبنائه. والميراث هنا مادي ومعنوي، يرتبط بأموال إبراهيم وممتلكاته من جهة وبنبوّة إبراهيم وميراثه الروحي من جهة أخرى.

تقول التوراة: (فقال الله بل سارة امرأتك تلد لك ابنا وتدعو اسمه إسحاق وأقيم عهدي معه عهداً أبدياً لنسله من بعده) تكوين 17: 19

وتقول: (فقالت لإبراهيم أطرد هذه الجارية وابنها. لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني إسحق) تكوين 21: 11

وهذا يعني حسب تصور التوراة، أن الميراث من حق إسحاق ونسله. ونسلُه يعقوب والأسباط ويوسف وكل من يدّعي بعدئذ أنه من نسل يعقوب.

الإله التوراتي. نفي الثبات، ضياع الهوية

بعد انقطاع الخبر التاريخي التوراتي، منذ وفاة يوسف وحتى بروز موسى عليه السلام لم تبرز لنا عقائد بني إسرائيل ولم تظهر. وكثيرٌ من الباحثين يرون أن هذه الفترة التي تقدر بأربعمائة سنة تقريبا هي حلقة مفقودة في تاريخ هذه الجماعة التي أطلقت عليها التوراة بني إسرائيل.

والحديث الذي أبرزته التوراة هو قولها: مات يوسف وإخوانه وجميع ذلك الجيل وأما بنو إسرائيل، فأثمروا وتوالدوا وكثر عددهم وامتلأت الأرض منهم ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف فخشي من كثرة بني إسرائيل وانضمامهم للأعداء عند حدوث الحرب. فسخرهم واستعبدهم وأذلهم بالأعمال الشاقة ولم يشر القرآن الكريم إلى هذه الفترة أو الحلقة المفقودة، والذي يمكن أن نجده في التوراة والقرآن الكريم هو الحديث عن استعباد فرعون لبني إسرائيل وتسخيرهم وقتل أطفالهم الذكور المولودين حديثاً. واستحياء نسائهم.

أما عن عقيدتهم فلا نجد ذكراً لذلك خاصة الفترة التي بدأت منذ وفاة يوسف وحتى بدء ظهور النبي موسى. وهناك بعض الآيات القرآنية التي تشير إلى موت يعقوب عليه السلام ووصيته لأبنائه بعبادة الإله الواحد.

يقول تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 133].

يقول تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 135 – 136].

فهل بقي أبناء يعقوب على دين يعقوب؟ وإذا كان الأسباط بما فيهم يوسف عليه السلام قد تمسكوا بعقيدة التوحيد فهل بقي أبناؤهم وأحفادهم على هذه العقيدة؟ أم تداخلت عقائد الفراعنة في عقيدتهم وتشوهت؟ إن أربعمائة سنة من وفاة يوسف حتى بروز موسى خلت من الأنبياء. ولم يرد ذكر أي نبي جاء لبني إسرائيل لا في التوراة ولا في القرآن الكريم. ويظل البحث في عقيدتهم ضمن الظن والتخمين، إذ ليس هناك أي برهان قاطع يدل على عقائدهم فمن المحتمل أنهم تأثروا بعقائد المصريين، ومن المحتمل أنهم ظلوا دون عقيدة واضحة، وربما بقي قسم منهم على ديانة التوحيد، وانحرف بعضهم الآخر ولعل الأحداث التي بدأت مع نبوة موسى عليه السلام قد تدلل على ما كانوا عليه.

تتحدث التوراة في سفر الخروج عن قصة ظهور ملاك الرب بلهب النار في وسط علّيقة ثم يسمع موسى صوت الله إذ يقول: إن موسى غطى وجهه لأنه خاف أن ينظر إلى الله. ويقول الرب لموسى. لقد رأيت مذلة شعبي في مصر ونزلت لأنقذهم وأصعدهم (إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً) خروج 3: 8.

وتذكر التوراة أمر الله لموسى ليتحدث لبني إسرائيل من أجل الخروج وتقول التوراة وتقولون له (إن إله العبرانيين قد التقانا) خروج 3: 18.

فنلاحظ هنا أنه قبل الخروج من مصر كانت التوراة تستخدم لفظ إله العبرانيين، وبعد الخروج أصبح إله إسرائيل دون العبرانيين.

ومهمة الله حسب نص التوراة، هي نزوله من عليائه لينقذ شعب العبرانيين بينما نجد أن القرآن الكريم يتحدث عن مهمة موسى الأولى وهي دعوة فرعون إلى

ديانة التوحيد.

يقـــول تعـــالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: 14].

و يقـول تعـالى: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [طه: 43 ـ 44] ويدخل موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون ويوضحان من خلال حوارهما معه ما هو الله. وأنه رب السماوات والأرض. والذي أعطى كل شئ خلقه ثم هدى. والله لا يضل ولا ينسى. وهو الذي جعل الأرض مهاداً وجعل فيها سبلاً وأنزل من السماء الماء إلى آخر ما هنالك من توضيحات.

وتبدأ قصة وتقلبات وضياع هوية الإله في عقلية بني إسرائيل مع بدء رحلة الخروج المشهورة.

تقول التوراة: (فلما اقترب فرعون رفع بنو إسرائيل عيونهم وإذا المصريون راحلون وراءهم ففزعوا جداً وصرخ بنو إسرائيل إلى الرب وقالوا لموسى هل لأنه ليست قبور في مصر أخذتنا لنموت في البرية. ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من مصر أليس هذا هو الكلام الذي كلمناك به في مصر قائلين كفَّ عنا فنخدم المصريين لأنه خير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت في البرية) خروج 14: 10 ـ 13

ففي هذا الحدث يتجلى الأفق النفسي للعقيدة عند بني إسرائيل. فلمجرد أول امتحان أو أول هزة، يتعرضون لها يثورون بوجه موسى، لأنهم لا يريدون الموت، ولا يريدون مغادرة العبودية. فعقيدة التوحيد ليس لها وجود في نفوسهم أو عقولهم. وفي هذه النصوص يغيب الرابط بينهم وبين العقيدة. والنبي موسى عليه السلام هو الذي يعرف بنبوته وعقيدته أن الله معه. ويحاول جاهداً تعليمهم أن الله سيكون معهم لو آمنوا. ولكن لا جدوى، فالطبع العقيدي غير التوحيدي يطغى على عقولهم. وهو الذي يمنع عقولهم، من التحرك لخوفهم الله وفهم التوحيد.

تقول التوراة: (ونظر إسرائيل المصريين أمواتاً على شاطئ البحر. ورأى إسرائيل الفعل العظيم الذي صنعه الرب بالمصريين. فخاف الشعب الرب وآمنوا بالرب وبعبده موسى) خروج 14: 30

وهذه اللحظة بالذات تدل بشكل واضح أن الإيمان الذي آمنوا هو إيمان الخوف والرهبة. آمنوا بالرب بسبب فعله. أي أن الإيمان جاء كردة فعل آنية. وهذا طبيعي على المستوى النفسي. ولكن ردة الفعل (الخوف والرهبة)، دائما تزول عندما يفقد السبب.

فعندما يدخل بنو إسرائيل سيناء ويبتعد الحدث عنهم، يعودون إلى طبيعتهم السابقة أي طبيعة الكفر، أو الانقلاب على لحظة الإيمان العابرة.

ففي الإصحاح 16، وبعد أن يرنّم بنو إسرائيل للرب لأنه أغرق فرعون، يدخلون برية سين التي بين إيليم وسيناء. وبعد خمسة عشر يوماً من دخولهم الصحراء.

تقول التوراة: (فتذمر كل جماعة بني إسرائيل على موسى وهارون في البرية وقال لهما بنو إسرائيل ليتنا متنا بيد الرب في أرض مصر إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزاً للشبع. فأنكما أخرجتمانا إلى هذا القفر لكي تميتا كل هذا الجمهور بالجوع) خروج 16: 1 ـ 3

ومرة بعد مرة يثور بنو إسرائيل، ويتذمرون من موسى بسبب صورة الماضي التي تعني لهم العبودية لفرعون، ولشعبه مقابل امتلاء البطون بالخبز واللحم.

ثم في الإصحاح 17 تقول التوراة: (ولم يكن ماء ليشرب الشعب. فخاصم الشعب موسى وقالوا أعطونا ماء لنشرب. . . فلماذا أصعدتنا من مصر لتميتنا وأولادنا ومواشينا بالعطش. فصرخ موسى إلى الرب قائلاً. ماذا أفعل بهذا الشعب بعد قليل يرجمونني) خروج 17: 1 ـ 2 فليس لله مكان في العقلية التي ركبت لدى بني إسرائيل. فالمسألة لا تعدو كونها صراعاً بينهم وبين النبي موسى عليه السلام.

وبعد هذا التذمر المتكرر تبدأ التقلبات العقيدية من حال إلى حال والدارس

لتقلبات العقيدة في النفسية اليهودية، يراها قد أخذت في كل فترة منحى حاداً. وهذا ما يشير إلى أن العلاقة بينهم وبين التوحيد هي علاقة هشة ليس لها استنادات قوية في النفوس.

سنرى ماذا يقول القرآن الكريم :

يقول تعالى : ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [الأعراف : 138].

فهذا هو الحدث الانقلابي الأول بالنسبة للعقيدة. ولعلنا جميعاً نتساءل أين الله الذي عرّفهم موسى على قدرته وعاليته ؟. يبدو أن الفترة الزمنية التي عاشوها في مصر جعلتهم يتمثلون عقيدة الأقوام، لاسيما المصريون الفراعنة فهم يريدون إلهاً مثل بقية الشعوب. وهذا حق لهم ولكن هذا الإله الذي يريدونه هو أشبه بآلهة الأقوام التي مروا بها في سيناء. والواقع أن طلبهم من موسى أن يجعل لهم إلهاً كالأصنام التي يعكف على عبادتها أقوام مروا بهم دليلُ إعجابهم المفرط بهذه الآلهة. وغيرتهم الزائدة أو حسدهم للأقوام الأخرى التي لها آلهة بينما هم بدون آلهة. !

ماذا كان يفعل موسى في تعاليمه لهم؟ ألم يقل لهم إن لكم إلهاً أنقذكم من عذاب فرعون؟ ألم يقولوا هم أنفسهم أن الرب أمات جنود فرعون فخافوه؟

لكنها طبيعة التقلب العقيدي التي جبلت بها نفوسهم.

ولندخل في أعماق الصحراء معهم لنصل إلى قصة العجل التي تعتبر من أهم القصص الحقيقية التي توضح ذلك التقلب.

فالتوراة تشير إلى هذه القصة بإسهاب.

والقرآن الكريم يتحدث عنها في أكثر من موضع. فما هي حيثيات هذه القصة وما المفارقات فيها؟

فمع أول غياب للنبي موسى عليه السلام عن بني إسرائيل، يبدأ الانقلاب الكبير في العقيدة. فبنو إسرائيل الذين اعتادوا رؤية عبادة المصريين، لم يستطيعوا تقبل وحدانية الله. وغياب موسى يعني بالنسبة لهم غياب الإله.

تقول التوراة: (ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل، اجتمع الشعب على هارون وقالوا له قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا لأن هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه. فقال لهم هارون انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتوني بها. فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا بها إلى هارون. فأخذ ذلك من أيديهم. صوره بالإزميل وصنعه عجلاً مسبوكا. فقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر) خروج 32: 1 ـ 5 وتقول التوراة: (صنعوا لهم عجلاً مسبوكاً وسجدوا له وذبحوا له وقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر) خروج 32 ـ 8. وتقول التوراة: (وسمع يشوع صوت الشعب في هتافه فقال لموسى صوت قتال في المحلة فقال ليس صوت صياح النصرة ولا صوت صياح الكسرة بل صوت غناء أنا سامع. وكان عندما اقترب إلى المحلة أنه أبصر العجل والرقص) خروج 32: 17 ـ 19.

وتقول التوراة: (ولما رأى موسى الشعب أنه معرًّى. لأن هارون كان قد عرَّاه) خ: 32: 25. فالذي ترسمه التوراة في هذه الصورة كالتالي:

عجل ذهبي يصنعه هارون. يسجدون له وذبحوا له القرابين. ثم يغنون له ويرقصون حوله عراة . . فالصورة واضحة تحتاج لتعليق بسيط. وهو أن بني إسرائيل لا يبتعدون عما نسمعه عن الأقوام البدائية في مجاهل الغابات. فالصورة توضح أنهم في الحضيض من التخلف العقيدي والعقلي والنفسي. ولا تبتعد الصورة عما ترسمه الأفلام الأمريكية عن الهنود الحمر أو قبائل الماو ماو في إفريقيا. ولا شك أن سؤالاً يطرح نفسه يقول ما الذي جعل بني إسرائيل يختارون العجل الذهبي إلهاً؟

الواقع أن الطبيعي بالنسبة لبني إسرائيل أن يختاروا أحد الآلهة المرموز لها

بالعجل، كما هو الحال عند المصريين والبابليين، والثور في الأسطورة البابلية أو المصرية رمز القوة في حراثة الأرض، ونقل بعض الأدوات عليه، كما هو الحال عند الهنود. وبنو إسرائيل الذين لم يمض على خروجهم من مصر الكثير من الوقت، ما يزالون يحتفظون في مخزونهم النفسي والفكري معتقدات المصريين وعقائدهم. إضافة لذلك فإن تدوين التوراة الذي تم في السبي البابلي، لم يكن بمعزل عن المؤثرات العقيدية الموجودة في بابل ثم في مدائن الفرس.

(وتعدُّ عبادة عجل آبيس Apis في منف من أقدم عبادات الحيوان في مصر، إذ أن عبادته قديمة قدم الأسرة الأولى، وتكشف عبادة آبيس عن تطور كان شائعا في الواقع. فهي تبدأ عبادة مستقلة بذاتها، ثم ترتبط عقائديا بعد ذلك بكبار الآلهة مثل رع وأوزوريس كما ترتبط باسم بتاح وكذلك بأهم آلهة منف. وقد تمت خطوة أبعد لا نظير لها. ففي بداية العهد البطلمي انتشرت عبادة أوزوريس - آبيس عن وعي لإقامة عبادة جديدة هي عبادة سيرابيس. وربما قصد بها أن توجه للإغريق المقيمين في مصر، غير أن سيرابيس فقد بمرور الزمن هيئة الثور آبيس)[1].

وقد اهتم الهندوس بعبادة الثور والبقرة كثيرا وفي (رج فيدا) أنشودة تقول: (لتصعد أنشودتي الملهمة إلى فيشنو الثور ساكن الجبال، صاحب الخطى الكبيرة. نتوق للذاهب إلى حيث تسكن حيث توجد الأبقار النشيطة ذات القرون العديدة. ومن هناك يشع فيشنو علينا فيشنو الثور بخطوته العالية.)[2]. وقد أصبحت تماثيل البقرة في كل معبد ومنزل وميدان، ولا يجوز للهندوسي تحت أي ظرف من الظروف أن يأكل لحمها أو يستغل جلدها في أية صناعة من الصناعات وهي إذا ماتت وجب دفنها بجلال مع أعظم طقوس الدين.)[3].

---

(1) جفري بارندر. المعتقدات الدينية لدى الشعوب. ص 51 ترجمة إمام عبد الفتاح إمام.

(2) سر قبالي داداكر وشارلز مور. الفكر الفلسفي الهندي. ترجمة ندرة اليازجي 1967.

(3) سليمان مظهر. قصة الديانات ص 86 الوطن العربي القاهرة - بيروت 1984.

وقد أوضح القرآن الكريم قصة عبادة بني إسرائيل للعجل بشكل مسهب، ولا تكاد تختلف عما جاء في التوراة من حيث هي كحدث. ولكن الاختلاف الجذري يقع في اتهام التوراة لهارون بأنه هو الذي صنع العجل لبني إسرائيل، إضافة لبعض الجزئيات الأخرى التي يمكن اكتشافها من خلال مقارنتنا النص التوراتي بالنص القرآني.

يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: 51].

ويقول تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: 54].

ويقول تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف: 148].

ويقول تعالى: ﴿ وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: 93].

ويقول تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ [النسأ: 153].

ويقول تعالى: ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف: 150].

ويقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ

ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾ [الأعراف: 152].

ويقول تعالى: ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴾ [سورة: طه 88 ـ 97].

لقد وردت الإشارة إلى عبادة بني إسرائيل للعجل في تسع مواضع من القرآن الكريم وجميعها تشير إلى الحدث بوضوح وتتقاطع مع قول التوراة في ذلك. لكن الاختلاف كما قلنا يقع في الحديث عن النبي هارون. فحسب قول التوراة، فإن هارون هو الذي يصنع العجل ليعبدوه. فهارون نبي بتصريح القرآن الكريم. وهو مكلف مثل موسى عليه السلام بتبليغ رسالة التوحيد. فلا يعقل أن يضل نبي عن عقيدته ليصنع عجلا من ذهب ليعبده قومه. والواقع أن السامري هو من صنع لهم هذا العجل وأما هارون فنهاهم عنه ولكنهم عصوه وكادوا يقتلونه حسب نص القرآن الكريم.

بعد موت يشوع يفتقد بنو إسرائيل للموجِّه والقائد، ويفتقدون بعد موسى عليه السلام للنبي الذي يواصل مسيرة الهداية بينهم. وبعد أن تسربوا إلى بعض أجزاء فلسطين، وجدوا شعباً كنعانياً متحضراً مستقراً، شعباً زراعياً له مدنه وقراه. وكان لابد للغزاة العبرانيين من النظر في عقائد الكنعانيين. ولاسيما أن الشعب

الكنعاني تحملهم وسكنوا في قراهم ومدنهم وهذا ما صرحت به التوراة نفسها.

وكأمثلة على ذلك تقول التوراة: وبنو بنيامين لم يطردوا اليبوسيين سكان أورشليم فسكن اليبوسيون مع بني بنيامين ولم يطرد منسى أهل بيت (شأن) وقراها ولا أهل (تعنك) وقراها ولا سكان (دور) وقراها ولا سكان (يبلعام) ولا سكان (مجدو) وقراها وإفرايم لم يطرد الكنعانيين الساكنين في (جازر). زبلون لم يطرد سكان (قطرون) ولا سكان (تهلول). ولم يطرد أشير سكان (عكا) ولا سكان (صيدون ويحلب وأكزيب وحلبة وفيق ورحوب). ونفتاي لم يطرد سكان (بيت شحى) ولا سكان (بيت عنا) بل سكن في وسط الكنعانيين سكان الأرض) القضاة 2: 22 و2 ـ: 27. و2: 30 ـ 31 ـ 32 ـ 33 ـ 34.

وقبل أن ندرس ضياع هوية الإله عند بني إسرائيل يجدر بنا أن نصحح كلام التوراة الذي ورد في هذه النصوص.

فبدل قولها سكن اليبوسيون مع بني بنيامين يكون القول الصواب سكن بنو بنيامين مع اليبوسيين. كما ورد في قولها بل سكن في وسط الكنعانيين سكان الأرض. وهذه النصوص التي صرحت بها التوراة تفتح أمام أعيننا دراسة التأثر والتأثير بين الكنعانيين وبني إسرائيل، وإذا عدنا إلى نصوص التوراة نفسها، وجدنا أن التأثير من جانب واحد فبنو إسرائيل لم يؤثروا في الكنعانيين بل الذي حدث هو أن الكنعانيين هم الذين أثروا ببني إسرائيل. وكان من المفترض أن يؤثر أصحاب عقيدة التوحيد في عقيدة الوثنية، غير أن بني إسرائيل الذين ما انفكوا يتقلبون في عقيدتهم بل في عقائدهم، لم يكونوا قادرين على تمثل عقيدة التوحيد ولم يكونوا قادرين على التأثير في غيرهم من الشعوب. وبرهنت نفسيتهم على أنهم سرعان مايتمثلون عقائد الآخرين بمجرد رؤية طقوسهم ومعابدهم وعقائدهم.

تقول التوراة: على لسان الرب (لم تسمعوا لصوتي) لكن صوته يذهب أدراج الرياح.

تقول التوراة: (وفعل بنو إسرائيل الشر في عيني الرب وعبدوا البعليم، وتركوا الرب إله آبائهم الذي أخرجهم من أرض مصر، وساروا وراء آلهة أخرى من آلهة الشعوب الذين حولهم وسجدوا لها وأغاظوا الرب) القضاة 2: 11-13.

(تركوا الرب وعبدوا البعليم وعشتاروت) القضاة 2: 14.

ولقضاتهم أيضا لم يسمعوا بل زنوا وراء آلهة أخرى وسجدوا لها. حادوا سريعاً عن الطريق التي سار بها آباؤهم لسمْعِ وصايا الرب لم يفعلوا هكذا) القضاة 2: 17 ـ 18.

وتقول التوراة: فعمل بنو إسرائيل الشر في عيني الرب ونسوا الرب إلههم وعبدوا البعليم والسواري. القضاة 3: 7.

وتقول: (وعاد بنو إسرائيل يعملون الشر في عيني الرب وعبدوا البعليم وعشتاروت وآلهة آرام وآلهة صيدون وآلهة موآب وآلهة بني عمون وآلهة الفلسطينيين وتركوا الرب ولم يعبدوه.) قضاة 10: 6.

وقد تميزت آلهة الشعوب أو القبائل التي كانت تسكن المنطقة بأنها آلهة منقسمة فيما بينها. وحسب الأساطير الكنعانية فإن الإله بعل وهو من كبار الآلهة يمثل السطوة والقوة والشر، على الرغم من أنه يمثل أحيانا إله الخصب والأمطار والصواعق، باعتباره إلها زراعيا وكان في المقابل آلهة أُخرى تمثل الجانب الخير في الأسطورة الكنعانية يمثله الإله إيل والإلهة عناة.

غير أن بني إسرائيل مالوا في عقيدتهم إلى الإله بعل ولم يميلوا إلى إيل والجانب الخير ونصوص التوراة تشير عشرات المرات إلى أن بني إسرائيل ساروا وراء البعليم ومن صفات بعل إنه يتلذذ بأرزاء البشر، يحب العقاب وهو الذي يأمر الأعاصير، ولا يتردد في النيل من الناس بيده حتى إنه لا يتردد في مصارعتهم.

ولم يكن لبعل أتباع رسميون في البداية، ثم انتشرت عبادته وصار له معابد، ولهذا الإله أتباع من خارج نطاق الشعب الكنعاني. ويقال إن زوجته تدعى عشتار،

ويرد أنّهما يدعوان للإباحية على العكس من الإله إيل والآلهة عناة، فهما يدعوان للمحبة والحفاظ على الأسرة، ويقفان في وجه الإباحية التي ينشرها بعل وعشتار. وفي عصر القضاة تعلق بعبادة بعل أكثر بني إسرائيل وبنوا له المعابد، ولذلك نجد أنه ينتشر كصنم في كثير من المناطق ويطلقون عليه عدة أسماء.

من ذلك نرى اسم (بعل فغور) (وبعل زبوب) (وبعل بريث) والأخير هو الذي يعبده الكنعانيون في نابلس، ويعبده بنو إسرائيل. وهناك أيضا (بعل تامار) أي إله التمور أو النخيل و(بعل جاد) و(بعل حاصور) و(بعل حرمون) أي إله جبل حرمون و(بعل صفون) أي إله الشمال، و(بعل فراصيم) أي إله الانفجارات و(بعل هامون) أي إله الجمهور وبعل معون أي إله السكن.

وليس مستغرباً أن يتبع بنو إسرائيل الإله بعل لأن تقلّبهم في العقيدة اقتضى منهم أن يكونوا على نقيضٍ من تعاليم الله التي أنزلت على موسى عليه السلام. وهذه التعاليم تتقاطع في كثيرٍ من القضايا الخيرة مع عبادة الإله إيل. ولذلك كان اختيارهم لبعل اختياراً لنوازعهم المنحرفة، وميلهم إلى الإباحية، ورفض كافة تعاليم السماء. وقد أوردت التوراة كما رأينا أن بني إسرائيل عبدوا البعل وآلهة أخرى وزنوا وراءها. وهذا ما يؤكد ميلهم إلى الإباحية التي مثّلها بعل في الأساطير الكنعانية. وقد تعاقبت عبادة الأصنام والآلهة الوثنية من الآباء إلى الأبناء وتورد التوراة أن الأبناء كانوا يفسدون أكثر من آبائهم في الذهاب وراء آلهة أخرى، يسجدون لها ويعبدونها.

وكان ربهم الأول ـ رب الجنود ـ قد حرَّم عليهم الاختلاط بالشعوب، لكن الشعوب كانت أقوى منهم وهذا طبيعي لأن المتخلف لا بد أن يتأثر بالمتحضر، والمتنقل يتبع المستقر، ولعل من أهم الأسباب التي جعلت بني إسرائيل يتقلبون من عقيدة إلى أخرى الاختلاط العرقي مع الشعوب التي سكن بنو إسرائيل في وسطهم. وهذا الاختلاط جاء نتيجة التزاوج المستمر بينهم وبين تلك الشعوب.

تقول التوراة: (فسكن بنو إسرائيل في وسط الكنعانيين والحثيين والأموريين

والفرزيين والحويين واليبوسيين، واتخذوا بناتهم لأنفسهم نساء، وأعطوا بناتهم لبنيهم وعبدوا آلهتهم) قضاة 3: 5 ـ 6.

وقياساً على هذا التزاوج فقد أوردت التوراة زوراً وبهتاناً أن النبي سليمان قد تزوج ألف امرأة وبنى لهن جميعاً معابد وصنع لهن أصناماً يعبدنها .

تقول التوراة: (وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون. موآبيات وعمونيات وآدوميات وصيدونيات وحثيات . . فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة وكانت له سبعمائة من النساء السيدات وثلاثمائة من السراري فأمالت نساؤه قلبه وراء آلهة أخرى وذهب وراء عشتروت وملكوم وكموش وبنى مرتفعة لهن على الجبل الذي تجاه أورشليم. وهكذا عمل لجميع نسائه اللواتي كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن) الملوك 11:1 ـ 4.

وتقول متهمة سليمان عليه السلام بالانحراف عن ديانة التوحيد: (وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى. ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه) ملوك أول 11: 5

وإذا نظرنا في سفر الملوك الثاني ونهاية سفر الملوك الأول لوجدنا تعاقب ملوك كثر على ما سمي دولتي إسرائيل ويهودا، ولوجدنا أن أكثرية هؤلاء الملوك تركوا عبادة إله إسرائيل واتبعوا عبادة آلهة الشعوب الوثنية، حتى أنها سيطرت تماما على عقائدهم جميعها، بمعنى أن عبادة الأصنام لحقها معتقدات دينية كثيرة، اختلطت بالسحر تارة، وبالقرابين تارة أخرى والمحرقات تارة ثالثة. وهذه الملحقات كانت موجودة زمن النبي موسى عليه السلام، ولكن توجهها أصبح باتجاه الأصنام وليس باتجاه إرضاء إله بني إسرائيل.

ولعل أكبر تحول عقيدي أوردته التوراة، هو الذي حدث عندما تسلم المُلكَ على إسرائيل المدعو آخاب بن عمري. وحسب قول التوراة فإنه تملك اثنتين وعشرين سنة. وتقول التوراة: (وعمل آخاب بن عمري الشر في عيني الرب أكثر

من جميع الذين من قبله وكأن سلوكه كان أمراً زهيداً قياساً بخطايا يربعام بن نباط، حتى اتخذ إيزابل ابنة اثبعل ملك الصيدونيين امرأة وسار وعبد البعل وسجد له، وأقام مذبحاً للبعل في بيت البعل الذي بناه في السامرة. وعمل آخاب سواري وزاد آخاب في العمل لإغاظة الرب إله إسرائيل أكثر من جميع ملوك إسرائيل الذين كانوا قبله) ملوك أول 16 : 30 ـ 33

وقد صرّحت التوراة بأن من بقي من بني إسرائيل لم يسجد للبعل هم سبعة آلاف فقط فقالت على لسان الرب : (فقد أبقيتُ في إسرائيل سبعة آلاف كل الركب التي لم تجثُ للبعل وكل فم لم يقبله) ملوك أول 19 : 18

وفي سفر الملوك الثاني تزداد عبادة بني إسرائيل للأصنام غلواً، ويرى القارئ في هذا السفر أن العقيدة غابت تماماً من نفوسهم وأكثرية ملوكهم خرجوا عن عقيدة إله إسرائيل .

فعلى سبيل المثال تقول التوراة (كان منسّى إبن اثنتي عشر سنة حين ملك وعمل الشر في عيني الرب حسب رجاسات الأمم الذين طردهم الرب من أمام بني إسرائيل. وعاد فبنى المرتفعات التي أبادها حزقية أبوه وأقام مذابح للبعل وعمل سارية كما عمل آخاب ملك إسرائيل وسجد لكل جند السماء وعبدها) ملوك 2 : 21 : 1 ـ 3 وتقول : (وعبرّ ابنه في النار وعاف وتفاءل واستخدم جانّ وتوابعَ، وأكثر عمل الشر في عيني الرب لإغاظته. ووضع تمثال السارية التي عمل في البيت الذي قال الرب عنه لداود وسليمان ابنه في هذا البيت) وفي أورشليم التي اخترت من جميع أسباط إسرائيل أضع اسمي إلى الأبد ملوك 2 : 21 ـ 5

وقد أشار القرآن الكريم إلى عبادة البعل من قبل بني إسرائيل، في سياق الحديث عن النبي إلياس.

يقول تعالى : ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝ فَكَذَّبُوهُ

فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات : 123 ـ 127]. والنبي إلياس على أكثر الأقوال هو نفسه إيليا الذي ذكرته التوراة وذكرت صراعه مع آخاب بن عمري وزوجته إيزابل اللذين أشاعا عبادة البعل بين اليهود. ولاحقا النبي إيليا بسبب دعوته لعقيدة التوحيد .

الإله التوراتي، مسيرة التجسيم والتجسيد

لدى بني إسرائيل تجليات كثيرة في مسيرة تصورهم للإله. وعلى اعتبار أن الإله الذي أرادوه لأنفسهم خاصة، فلا بد أن يكون التعامل مع هذا الإله على أساس الخصوصية الإسرائيلية، وعلى أساس أنهم اختاروه بأنفسهم ليضفوا عليه تصوراتهم وتخيلاتهم، وعلاقتهم معه.

لقد بدأ هذا التصور منذ سفر التكوين، ولكنه راح يتكامل في سفر الخروج، ليؤسس فكراً دينياً خاصاً لأتباع اليهودية فيما بعد.

يبدأ التصور بمسير الله أمامهم عندما هربوا من فرعون وجنوده، في طريقهم إلى سيناء، تقول التوراة: (وكان الرب يسير أمامهم نهارا في عمود سحاب ليهديهم في الطريق وليلا في عمود نار ليضيء لهم لكي يمشوا نهارا وليلا لم يبرح عمود السحاب نهارا وعمود النار ليلا من أمام الشعب). خروج 13 : 21ـ 22.

وكما جسد كاتب التوراة الله في عمود سحاب وعمود نار، فإنه يتجاوز ذلك مع تطور تصوّره، فلا حدود تمنعه من هذا التجاوز، ولا عقيدة توحيدية تسعفه في الحد من الغلو الذي يقع فيه:

تقول التوراة: (لأنه في اليوم الثالث ينزل الرب أمام عيون جميع الشعب على جبل سيناء) (وحدث في اليوم الثالث لما كان الصباح أنه صارت رعود وبروق وسحاب ثقيل إلى الجبل وصوت بوق شديد جداً فارتعد كل الشعب لملاقاة الله... وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار وصعد دخان كدخان الآتون. وارتجف كل الجبل جداً. . ونزل الرب على جبل سيناء إلى رأس

الجبل) خروج: 19: 16 ـ 20.

وعندما نقارن هذه النصوص بنصوص بابلية أو كنعانية سنرى التصورات نفسها، التصورات اليهودية التي اقتبست من تلك الأساطير الوثنية. فالملك البابلي أو الكنعاني ينقلب إلى إله وما عدا ذلك فإن جميع الأمور تتشابه. نزول الإله على الجبل يشابه تماما نزول الإله الوثني بعل من السحاب إلى الأرض. وأصوات البوق والزمور من الأدوات المستعملة في المراسم الملكية. وخاصة البوق المصنوع من القرون الكبيرة.

والنص التوراتي الذي أوردناه من سفر الخروج لا يترك مجالاً للتفسير المجازي. فنزول الرب نزول مادي. عيون الشعب أيضا ليست رؤيا أو بصيرة. وصوت البوق والرعود والبروق والسحاب الثقيل. وملاقاة الله. وجبل سيناء يدخن. ونزول الإله بالنار ودخانه ثم نزول الرب على رأس الجبل. كل ذلك ليس ثمة فرصة لتفسيره تفسيراً مجازياً كما يدّعي بعض اللاهوتيين.

وتتمادى الرؤية التوراتية في وصف العلاقة بين بني إسرائيل وبين الله حتى تصل درجة التأكيد الاستمراري على الرؤية البصرية لله وهي رؤية جماعية. إن هذا يفتح الأعين على طبيعة التأسيس الكهنوتي في وصف الله والقوى الغيبية كالملائكة والجن. ولكن الدارس لطبيعة العقائد الوثنية، سيرى أن التأسيس الكهنوتي اليهودي لم يكن تأسيسا توحيديا إنما جاء تأسيسا وثنيا مخالفا لكل ما جاء به النبي موسى عليه السلام. تقول التوراة:

(ثم صعد موسى وهارون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل ورأوا إله إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء في النقاوة ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بني إسرائيل فرأوا الله وأكلوا وشربوا) الخروج: 24: 9 ـ 11.

وهذا تجسيد واضح وتشبيه لا خفاء فيه. وقد وردت عبارة أخرى في سفر العدد تقول: يا رب ظهرت لهم عينا لعين. وسحابتك واقفة عليهم وأنت سائر أمامهم بعمود سحاب نهارا وبعمود نار ليلاً) العدد: 14 ـ 14. لكن معنى هذه العبارة يرد في نسخة أخرى من التوراة بقولها:

(وكان منظر عظمة السيد كنار آكلة في قرن الجبل يراه جماعة بني إسرائيل)، وهذا يدل على استمرار التحريف في التوراة من وقت لآخر[1].

في النص السابق يتضح التطوير اليهودي لصورة الله. لقد رأوا فيه عظمة وجبروتا، ولكن يجب أن يمنحوه أيضا جمالا وروعة تفوق جمال الإنسان. ومن الطبيعي جدا أن يجاري بنو إسرائيل الشعوب الأخرى في تصوراتها. فكتبة التوراة وجدوا ما كان عليه ملوك بابل وأصنامهم وما يحاط بها من هالة وتزيين. والواقع الجغرافي البيئي يقول لنا: إن بني إسرائيل الذين ما يزالون في صحراء سيناء، لا يرون سوى الرمال والحر والعواصف لا يمكن أن يأتوا بهذا الوصف للإله. خاصة بقول التوراة (شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف).

وفي مثل هذا النص يحددون خاصية لهذا الإله. فهو إله إسرائيل، ويجب أن يكون هذا الإله الخاص متميزا عن جميع الإلهة. وهذا طبيعي بالنسبة للشعوب والفئات الوثنية، فالتنافس في إضفاء الصفات الرائعة والمخيفة، الجميلة والجليلة، كان رفيق تلك الشعوب، وتلك الأزمنة. فكلما كان الإله يمتاز بصفات أكثر تضادا كلما كان أقوى وأكثر تفوقا، ويستحق التقدير. وتحضرنا الآن صورة الإله الهندوسي براهما ذو الأقانيم الثلاثة. فهو في أحد وجوهه إله الحرب، وفي وجه آخر إله الحب والرحمة. وهو في وجه ثالث إله خالق. لكنه إله واحد متعدد الوجوه، متعدد الصفات، مع ذلك فإن المأساة اليهودية تكمن في أن الإله الذي يتصوره بنو إسرائيل لم يكن هو الذي يضفي على نفسه

---

(1) ابن حزم الأندلسي. الفصل بين الملل والأهواء والنحل ص 255 من تعليق المحقق د: عبد الرحمن عميرة.

صفات القوة والعظمة والجمال والجبروت. إنما هم من يصنعون هذه الصفات لتتناسب وتفكيرهم وتصوراتهم القادمة وظروفهم المستجدة.

إنّ العقلية الإسرائيلية في سفر الخروج تؤكد على الصلة المباشرة بينهم وبين الله، ففي أكثر من عشرة مواضع يركز كاتب التوراة على نزول الرب من عليائه ولقائه ببني إسرائيل. وفي كل لقاء، يضفي كاتب التوراة على الجو المحيط هالة أسطورية مهيبة. تقول التوراة: (وأخذ موسى الخيمة ونصبها له خارج المحلة بعيدا عن المحلة. ودعاها خيمة الاجتماع. فكان كل من يطلب الرب يخرج إلى خيمة الاجتماع التي خارج المحلة وكان جميع الشعب إذا خرج موسى إلى الخيمة يقومون ويقفون كل واحد في باب خيمته. وينظرون وراء موسى حتى يدخل الخيمة. وكان عمود السحاب إذا دخل موسى الخيمة ينزل ويقف عند باب الخيمة، ويتكلم الرب مع موسى فيرى جميع الشعب عمود السحاب واقفا عند باب الخيمة. ويقوم كل الشعب ويسجدون كل واحد في باب خيمته. ويكلم الرب موسى وجها لوجه كما يكلم الرجل صاحبه) خروج 37: 7 ـ 11.

والواضح من خلال النص أن أفراد بني إسرائيل يدخلون إذا رغبوا إلى الخيمة واحدا بعد الآخر يريدون لقاء الرب. فإذا عدنا إلى بداية سفر الخروج نرى أن التوراة تورد أن الذين خرجوا من بني إسرائيل هم ستمائة ألف راجل فكيف يتسنى لهذا العدد أن يدخل لخيمة الاجتماع، أو نصفه أو ربعه. ولو كان الأمر مرتبطا بشخص نبياً كان أو غير نبي لاستحالت مقابلته لهم إلا بعد أشهر فكيف إذا كان هذا الذي يقابلهم هو الرب؟.

ويؤكد كلام الرب على وجود عمود السحاب الذي ينزل كلما دخل موسى الخيمة، ويذهب بعيدا إن خرج موسى من تلك الخيمة.

وموسى يكلم الرب وجها لوجه كما يكلم الرجل صاحبه. فإن كان هذا من باب المجاز فنقول لماذا تصر التوراة على قولها كما يكلم الرجل صاحبه. وإن قلت هذا من باب الحقيقة فإن الرب في هذه الحالة يتجسد شخصا عاديا، يجلس في

الخيمة كالبشر. وهذا يتنافى حتى مع التوحيد الموسوي الذي أوضحه القرآن الكريم في كثير من آياته.

يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۖ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: 143].

وقد أشارت الآيات القرآنية الكريمة إلى أن موسى عليه السلام كان كليم الله. وهذا مما خصه الله سبحانه لهذا النبي. ولكن رؤية الله على الحقيقة أمر محال. وظاهر الآية يدل على ذلك. فموسى عليه السلام لم ير الله، ولن يراه، حتى تلقى رسالة السماء. وقد وجد بعض المفسرين وبعض قراء هذه الآية ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا ...﴾ إلى آخر الآية أنها تدل على جواز الرؤية لله. وقد رد بعض الدارسين على ذلك. وجاء في أحد الردود:

إن موسى عليه السلام لم يسأل الرؤية لنفسه، إنما سألها لقومه، فقد روي أن قومه طلبوا ذلك منه، فأجابهم بأن الرؤية لا تجوز على الله سبحانه وتعالى. فلجّوا به وألحّوا عليه في أن يسأل الله تعالى أن يريهم نفسه، وغلب في ظنه أن الجواب إذا ورد من جهته، جلت عظمته كان أحسم للشبهة وأنفى لها.

ويقوي هذا الجواب قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ﴾ [النساء: 153].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: 55][1].

---

(1) أبو القاسم الحسيني الموسوي. تنزيه الأنبياء ص 111ـ112.

وإذا عدنا إلى الإصحاح الثالث والثلاثين من سفر الخروج نرى الكلام يجاري الصواب في مسألة رؤية موسى وذلك ما يناقض القول الأول ـ كما يكلم الرجل صاحبه ـ فتقول التوراة: فقال أرني مجدك...

وقال (لا تقدر أن ترى وجهي لأن الإنسان لا يراني ويعيش) الخروج 33: 18ـ20.

ومع ذلك فإن التزيينات التوراتية، والزيادات التحريفية تأبى أن يبقى السياق توحيديا.

تقول التوراة: (وقال الرب هو ذا عندي مكان فتقف على الصخرة ويكون حتى أجتاز مجدي إني أضعك في نقرة من الصخرة وأسترك بيدي حتى أجتاز ثم أرفع يدي فتنظر ورائي وأما وجهي فلا يرى) خروج33: 21ـ23.

وهذا يعني أن الرب أجاز لموسى عليه السلام أن يرى ظهر الله وقفاه، وأن لا يرى وجهه، وهذا تجسيد بشع من قبل التوراة، ووثنية واضحة، إذ جعلت الله محدودا مجسدا، له وجه وله ظهر، وهذا ما يتنافى كليا مع عقيدة التوحيد التي تنزه الله عن المكان والحدود. والتجسيد والتجسيم.

وتتابع التوراة هذا التجسيد بقولها (فنزل الرب من السحاب. فوقف عنده هناك ونادى باسم الرب فاجتاز الرب قدامه) خروج34: 5ـ6.

إله الذهب اليهودي

في عقائد التوحيد وحتى بعض العقائد الإثنية كالزاردشتية يتنزه الإله عن الماديات مهما كان قدرها ومهما كانت قيمتها. ومن المعروف أن أساس العقائد هو الجنوح دوما نحو المعنويات. فالمادة في خدمة قيم الخير والعدل والجمال وما إلى ذلك، لكن طبيعة أتباع العقيدة اليهودية تأبى أن تكون العقيدة كذلك. ويأبى هؤلاء أن يكون الإله منزها عن الماديات.

فالذهب هو المعدن الأثمن، يصبح في العقلية اليهودية وسواساً وهوساً حتى

يصل بهم الحد إلى إفصاح إلههم عن حبه للذهب ولو كان الذهب حراماً ومسروقاً. وضمن تسلسل سفر الخروج وما بعده. سنجد الذهب يلعب دوره بشكل قوي في العقيدة اليهودية وفي ميول الإله التوراتي.

هذا الإله يأمر بني إسرائيل أن يسرقوا المصريين آنية الذهب والفضة بحجة الاستعارة، وذلك قبل يوم من هروبهم باتجاه سيناء.

تقول التوراة: (طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثيابا. وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم فسلبوا المصريين) خروج 12.

ولكننا في الإصحاح الخامس والعشرين نرى الرب يأمر مباشرة بصنع تابوت العهد الذي ستحفظ به تعاليم التوراة. وسنرى كيف يلعب الذهب دوره المهم في صنع هذا التابوت.

تقول التوراة: وكلم الرب موسى قائلاً: (وهذه هي التقدمة التي تأخذونها منهم. ذهب وفضة ونحاس) خروج 25: 1و3.

فيصنعون تابوتاً من خشب السنط. وتغشيه بذهب نقي. من داخل ومن خارج تغطيه وتصنع عليه إكليلاً من ذهب حواليه. وتسبك له أربعة حلقات من ذهب. وتصنع له عصوين من خشب السنط وتغشيهما بذهب. وتصنع غطاء من ذهب نقي طوله ذراعان ونصف. وتصنع كروبين من ذهب. وأنا أجتمع بك هناك، وأتكلم معك من على الغطاء من بين الكروبين اللذين على تابوت الشهادة.

خروج 25: 10 ـ 11 ـ 12 ـ 14 وتصنع مائدة من خشب السنط، طولها ذراعان. وعرضها ذراع وارتفاعها ذراع ونصف وتغشيها بذهب نقي. وتصنع لها إكليلاً من ذهب حواليها. وتصنع لها حاجبا على شبر حواليها. وتصنع لحاجبها إكليلاً من ذهب حواليها.

وتصنع لها أربعة حلقات من ذهب. عند الحاجب تكون الحلقات بيوتاً لعصوين لحمل المائدة. وتصنع العصوين من خشب السنط وتغشيهما بالذهب.

وتصنع صحافها وصحونها وكاساتها وجاماتها التي يسكب بها من ذهب نقي تصنعها، وتصنع منارة من ذهب نقي. عمل الخراطة تصنع المنارة قاعدتها وساقها. تكون كاساتها وعجرها وأزهارها منها. وست شعب من جانبيها. من جانبها الواحد ثلاثة شعب منارة. ومن جانبها الثاني ثلاثة شعب منارة. وفي الشعبة الواحدة ثلاث كاسات لوزية بعجرة وزهر. وفي الشعبة الثانية ثلاث كاسات لوزية، بعجرة وزهر وهكذا إلى الست شعب الخارجة من المنارة. وفي المنارة أربع كاسات لوزية، بعجرها وأزهارها، وتحت الشعبتين منها عجرة. وتحت الشعبتين منها عجرة إلى الست الشعب الخارجة من المنارة تكون عجرها وشعبها منها جميعها خراطة واحدة من ذهب نقي. وتصنع سرجها سبعة. فتصعد سرجها لتضيء إلى مقابلها وملاقطها ومنافضها من ذهب نقي من وزنة ذهب نقي تصنع من جميع هذه الأواني وانظر فاصنعها على مثالها الذي أظهر لك في الجبل.

وتقول: (وتصنع خمسين شظاظاً من ذهب).

ففي سفر الخروج، وفي إصحاح واحد هو الإصحاح الخامس والعشرون ترد كلمة ذهب عشرين مرة. وكل ذلك، ليؤكد الرب عظمته وهيبته وقدسية ما يقول النبي موسى ليحفظ تابوت العهد.

ولا شك أن هذه الفقرات المطولة توحي لنا بكثير من الأسئلة. أولها: موسى وبنو إسرائيل في سيناء أي في الصحراء فمن أين يأتون بكل هذا الذهب؟.

ثانيها: إذا كان الذهب الذي يحتاجونه لهذا الصنع موجودا فهل يعني أنهم سرقوا المصريين كل ذهبهم؟.

ثالثها: ما العلاقة بين الله والتوحيد من جهة، والذهب وتابوت العهد الذهبي من جهة أخرى؟.

والمدقق في حياة بني إسرائيل يرى أن الذهب يشكل فيها العنصر الأول. وعلى مدى التاريخ عرف اليهود بالإتجار بالذهب في كافة الأوساط الاجتماعية

العالمية . وقد جاء ذلك من خلال المخزون النفسي اليهودي الذي بني على أساس اقتصادي صرف .

أما بالنسبة لما ورد في التوراة ، فإنّ المدونين في السبي البابلي نقلوا كل ما يمكن نقله عن البابليين ، خاصة ما يتعلق بشؤون العبادة والمعابد وملحقاتها ، ومن الطبيعي أن يلعب أغلى معدن ـ وهو الذهب ـ دوره المهم فيما يخص المعبود عند بني إسرائيل . وسنجد ذلك أيضا ، وبشكل واضح عندما يصنعون العجل الذهبي ، ويعبدونه في غياب النبي موسى عليه السلام .

ويرد في سفر الملوك الأول والثاني عبارات كثيرة تدل بشكل واضح على دور الذهب في حياة بني إسرائيل .

فحسب ما جاء في التوراة أن سليمان بنى هيكل الرب (بخشب أرز وخشب سرو وذهب حسب كل مسرّته) ملوك أول9 : 11

ثم يرد : (وأرسل حيرام للملك مائة وعشرين وزنة ذهب) ملوك 9 : 14 .

وتقول التوراة : (ولأجل المحراب عشرون ذراعا طولا وعشرون ذراعاً عرضاً . وعشرون ذراعاً سمكاً . وغشاه بذهب خالص وغشى المذبح بأرز . وغشى سليمان البيت من داخل بذهب خالص . وسد بسلاسل ذهب قدام المحراب وغشاه بذهب وجميع البيت غشاه بذهب إلى تمام كل البيت وكل المذبح الذي غشاه بذهب) ملوك أول 6 : 20ـ 23 .

وتقول : (وغشى الكروبين بذهب .) 6 : 29 .

وتقول : (وغشى أرض البيت بذهب من داخل ومن خارج) . 6 : 30 ـ 31 .

وتقول : (ورسم عليهما نقش كروبيم ونخيل وبراعم وزهور وغشاهما بذهب ، ورصّع الكروبيم والنخيل بذهب) . 6 : 32 .

وتقول : (وعمل سليمان جميع آنية بيت الرب المذبح من ذهب والمائدة التي عليها خبز الوجوه من ذهب والمنائر خمساً عن اليمين وخمساً عن اليسار أمام المحراب

من ذهب خالص والأزهار والسرج والملاقط من ذهب، والطسوس والمقاص والمناضح والصحون والمجامر من ذهب خالص. والوصل لمصاريع البيت الداخلي أي لقدس الأقداس ولأبواب البيت أي الهيكل من ذهب). ملوك أول 7: 48ـ 51

وتقول: (وأدخل سليمان أقداس داود أبيه الفضة والذهب والآنية جعلها في خزائن بيت الرب..) 7: 50.

وتقول التوراة: (وكان وزن الذهب الذي أتى سليمان في سنة واحدة ست مائة وستا وستين وزنة ذهب ما عدا الذي من عند التجار وتجارة التجار وجميع ملوك العرب وولاة الأرض) ملوك أول 10: 14ـ 15.

وتقول: (وعمل الملك سليمان مائتي ترس من ذهب مطرق. خص الترس الواحد ست مائة شاقل من الذهب وثلاث مئة مجنّ من ذهب مطرق خص المجنّ ثلاثة أمناء من الذهب) 10: 16ـ 17.

وتقول: (وعمل الملك كرسيا عظيما من عاج وغشّاه بذهب إبريز) 10ـ 18.

وتقول: (وجميع آنية شرب الملك سليمان من ذهب وجميع آنية وعر لبنان من ذهب خالص لا فضة) ملوك أول 10: 21.

والواقع أن تركيز التوراة على الذهب كان الأهم من الحديث على أي أمر آخر. وقد تناست أو تقصّدت أن تتناسى مهمة النبي سليمان في الدعوة لديانة التوحيد. وكانت لمسات الملك وحدها هي الطاغية على شخصية النبي سليمان وليست لمسات النبوة.

وطالما أن التوراة افترت على النبي سليمان وادعت أنه انحاز عن طريق الله حينما أمالت نساؤه قلبه وراء الآلهة الوثنية. فليس غريبا أن تركز على اهتمام شخصية سليمان على عنصر الذهب وليس على عنصر التوحيد والعقيدة. إن تحليل الشخصية اليهودية عبر التاريخ يدلنا على أنها شخصية بنيت على علاقة اليهودي بدنياه وهذه العلاقة تستند إلى مقولة أن الإنسان في هذه الدنيا يخلق جنته

وجحيمه بيديه. فليس هناك جحيم ولا جنة في الآخرة. وإن كان، فإن العقلية الكهنوتية اليهودية تحقن في نفوس اليهود مقولة إن الله لن يحاسب اليهود، وأنهم سيدخلون النعيم بغير حساب.

وعبر التاريخ بنيت بعض الخرافات والأساطير حول علاقة اليهود بالذهب. وهذه الخرافات والأساطير خلقها اليهود أنفسهم. فهناك مقولة إن الله أنزل بدل المطر ذهبا على بني إسرائيل لمدة سبعة أيام وما شبعوا. وفي مساحات فولكلورية كثيرة يقول بعض الجهلة إن اليهود من يوم أن أمطر الله عليهم الذهب وهم أغنياء يمتلكون ذهب العالم. وهناك خرافات أيضا تقول بأن كنوز الذهب المدفونة في الأرض لا يعرف مكانها وأسرار كشفها سوى اليهود. وكم من قصة، وكم من إشاعة وإشاعة صدرها اليهود تقول بأنهم بعد حرب 1967 قد حفروا مناطق كثيرة في الجولان وجنوب لبنان وحتى في سيناء ووجدوا كميات هائلة من الذهب.

ومع كل ما في هذه الأقاويل من خرافات ومبالغات فإن الثابت لدى الناس جميعاً حتى الأوروبيين بأن العقلية اليهودية عقلية مالية، وعلاقتها بالذهب علاقة وطيدة. وقد برزت هذه المقولات في الأدب الأوروبي بشكل عام. فمسرحية تاجر البندقية لشكسبير، أكبر دليل على عقلية اليهودي المحب للمال والذهب. فشايلوك اليهودي لم يثره هرب ابنته مع رجل مسيحي بقدر ما أثارته سرقة ذهبه وأمواله.

وقد أشاع اليهود منذ زمن بعيد أسطورة ما يسمى كنوز سليمان. وقد تناقلتها الألسن في التراث العربي بشكل واسع جدا وكذلك في التراث الأوروبي. وقد أضفت حولها كثيرا من الهالة والتضخيم حتى أصبحت في التفكير الشعبي شيئا لا يضاهى...

يهوه الإله المحارب

في أسفار التوراة الأولى، يبرز لنا سياق الأحداث الملحمي للقصص والحكايات التي تصور بداية صراع بني إسرائيل مع كثير من الأقوام التي كانت تقطن

في شرقي الأردن وجنوب فلسطين. وهذه الأحداث التي تتطور. ، يتطور معها تصور بني إسرائيل للإله فهو أولا يأمرهم بالحرب، ويعدهم بسحق أعدائهم، ثم التدخل لصالحهم بقوة لا يمكن ردها ولو كانوا معتدين أو كانوا على باطل.

ويبلغ أوج الملحمة الأسطورية التوراتية في سفر يشوع، حيث تبدأ الصياغة بتسليط الضوء على طبيعة الإله المحارب.

ومن الطبيعي أن التصورات الإسرائيلية لهذا الإله تتجاوب مع الواقع الموضوعي والنفسي الذي يعيشه بنو إسرائيل في كل مرحلة من مراحل حياتهم.

وعلى الرغم من أن كثيرا من الدراسات تنفي ما تقوله التوراة عن الفتح الحربي الذي أجراه يشوع والإسرائيليون[1] إلا أن التدوين التوراتي يعطي لتلك الحروب التي قادها يشوع أهمية كبرى، باعتبارها تنفيذا لوصايا الرب ووعوده.

وبغض النظر عن صحة ما ورد في سفر يشوع أو عدم صحته، إلا أن التصورات التوراتية للإله تأخذ أهمية بالغة في هذا السفر. إذ يرى القارئ تحول هذا الإله إلى قائد عسكري دموي يقود مجموعة متوحشة من البشر باتجاه الإبادة للبشر والمدن والحضارة.

وترتكز صورة يهوه على الارتباط بما يسمى تابوت عهد الرب، فبه ينتصر إسرائيل وبدونه ينكسرون. وتركز الإصحاحات الأولى من سفر يشوع على وجود هذا التابوت باعتباره رمز العقيدة الإسرائيلية.

وتقول التوراة: (وأمروا الشعب قائلين عندما ترون تابوت عهد الرب إلهكم والكهنة اللاويين حاملين إياه فارتحلوا من أماكنكم وسيروا وراءه) يشوع 3:3.

وتقول: (وقال يشوع للشعب تقدسوا لأن الرب يعمل غدا في وسطكم عجائب) يشوع 3: 5.

---

(1) ينفي فراس السوّاح دخول يشوع ارض كنعان ومن ثم ينفي كل ما حدث من مذابح على يد يشوع.

ثم تقول (هو ذا تابوت عهد سيد كل الأرض عابرا أمامكم في الأردن) 3: 11.

ويرى بعض الباحثين المستندين على كلام التوراة أن يهوه إله حرب إقليمي، مثله مثل آلهة القبائل أو الممالك الأخرى، المنتشرة في الشرق القديم، اتخذه موسى إلها وجعله ينطق بما يشاء، ويضع الأوامر والأحكام على لسانه لتكتسب صفة المقدس وفرض عبادته على قومه بني إسرائيل بالإرهاب المصحوب بالقتل والتذبيح)[1] والواقع أن النبي موسى عليه السلام لم يدعُ إلى إله قبلي يذبح ويقتل ولكن التوراة المدونة هي التي شوّهت شخصية النبي موسى عليه السلام، بل شوّهت الإله، وجعلته إلها محاربا مزاجيا دمويا.

تبدأ قصة المحارب من هذه المستندات، والتصور التوراتي يحصر الإله في كونه قائدا عسكريا يخوض المعارك أمام بني إسرائيل

تقول التوراة: (وعبر بنو رأوبين وبنو جاد ونصف سبط منسى متجهزين أمام بني إسرائيل كما كلمهم موسى، نحو أربعين ألفا متجهزين للجند، عبروا أمام الرب للحرب إلى عربات أريحا) يشوع 4: 12-13.

والواقع الذي يشير إليه النص أن الإله قائد عسكري أعلى يستعرض صفوف الجند والمقاتلين ثم يبعث هذا الإله القائد نائبه ليلتقي يشوع شاهرا سيفه، ويلبس عدة الحرب ليخوض المعركة الدموية إلى جانب بني إسرائيل.

تقول التوراة: (وحدث لما كان يشوع عند أريحا أنه رفع عينيه ونظر وإذا برجل واقف قبالته وسيفه مسلول بيده فسار يشوع إليه وقال له هل أنت لنا أو لأعدائنا فقال كلا بل أنا رئيس جند الرب الآن أتيت فسقط يشوع على وجهه إلى الأرض وسجد وقال له بماذا يكلم سيدي عبده فقال رئيس جند الرب ليشوع اخلع نعلك من رجلك لأن المكان الذي أنت واقف عليه هو مقدس) يشوع 5: 13-15.

ويقود الرب المحارب بني إسرائيل في معارك عديدة، يفتح البلدان والمدن

---

(1) جرجي كنعان: وثيقة الصهيونية في العهد القديم ص 43.

ويأمر بتصفية أبنائها. يقتل الرجال والنساء والأطفال والشيوخ والبقر والحمير، وتحرق المدن، وهذا ما تصرح به التوراة نفسها.

تقول التوراة: (لأن الرب إلهكم هو المحارب عنكم) يشوع 23: 3.

وتقول: (قد طرد الرب من أمامكم شعوبا كثيرة وقوية... رجل واحد منكم يطرد ألفا لأن الرب هو المحارب عنكم كما كلمكم) يشوع 23: 10.

وتقول التوراة: فبعد غزو الرب ويشوع لعشرات المدن يستعرضان مرة أخرى جنود بني إسرائيل (وجمع يشوع جميع أسباط إسرائيل إلى شكيم. ودعا شيوخ إسرائيل ورؤساءهم وقضاتَهم وعرفاءهم فمثلوا أمام الرب) يشوع 24 / 1-2.

وفي الملحمة اليشوعية التوراتية نرى أن الإله ذو نفس متصلبة قاسية، روحه عنيفة حاقدة، مرعبة، منتقمة، ونفسيته تشتعل بالثأر والانتقام، يسير أمام المحاربين لأنه رب الجنود، ويأمر بتدمير المدن وتذبيح البشر في هجمات بربرية وحشية.

ويبدو أن بني إسرائيل منذ اتخذوا يهوه إلَهاً لهم، جعلوه إلَهاً غاصباً ظالماً قاسياً يسر لرائحة المحرقات وينتشي برائحة الدم. ومسيرة الملحمة اليشوعية تظهر لنا طبيعة هذا الرب المحارب.

جاء في سفر يشوع (ويكون عند أخذكم المدينة أنكم تضرمون المدينة بالنار. كقول الرب تفعلون) يشوع 8:8. ثم يعلّم الرب يشوع طرق الحرب وأساليبها وفنونها فقال الرب ليشوع مد المزراق الذي بيدك نحو عاي لأني بيدك أدفعها). يشوع 8: 18.

وتقول التوراة: (وأخذ يشوع جميع أولئك الملوك وأرضهم دفعة واحدة لأن الرب إله إسرائيل حارب عن إسرائيل). يشوع 10: 42.

وتقول التوراة: (فقال الرب ليشوع لا تخفهم لأني غدا في مثل هذا الوقت أدفعهم جميعا قتلى أمام إسرائيل فتعرقب خيلهم وتحرق مركباتهم بالنار) يشوع 11: 6.

ويأمر الرب يشوع أن يجعل بعض المدن ملجأ للمجرمين وقطاع الطرق فيقول:

(وكلم الرب يشوعاً قائلا كلم بني إسرائيل قائلا اجعلوا لأنفسكم مدن الملجأ كما كلمتكم على يد موسى لكي يهرب إليها القاتل ضارب نفس سهوا بغير علم) يشوع 20 : 3. وتكمل قولها: (فتكون لكم ملجأ من ولي الدم، فيهرب إلى واحدة من هذه المدن ويقف في مدخل باب المدينة ويتكلم بدعواه في آذان شيوخ تلك المدينة فيضمونه إليهم إلى المدينة ويعطونه مكانا فيسكن معهم) 20 : 4. وإذا تبعه ولي الدم فلا يسلموا القاتل بيده)20 : 5.

وتقول التوراة: (وأنتم قد رأيتم كل ما عمل الرب إلهكم بجميع أولئك الشعوب من أجلكم لأن الرب إلهكم هو المحارب عنكم) يشوع 23 : 3

وفي سفر القضاة ترد مقاطع كثيرة تشير إلى أن الرب إله إسرائيل كان يتدخل باستمرار إلى جانب بني إسرائيل في حروبهم العدوانية ضد الشعوب والقبائل.

تقول التوراة: (فقالت دبورة لباراق قم. لأن هذا هو اليوم الذي دفع فيه الرب سيسرا ليدك. ألم يخرج الرب قدامك. فنزل باراق من جبل تابور ووراءه عشرة آلاف رجل فأزعج الرب سيسرا وكل المركبات. . .) قضاة 4 : 15-15.

وهكذا نجد الإله التوراتي قائدا عسكريا يخطط للمعارك، ويتدخل عند اللزوم لصالح بني إسرائيل، إن كانت حربهم عدوانية، أو كانت لأجل السلب والتدمير أو القتل الجماعي والإبادة.

وقد أشرنا منذ البداية إلى أن هذا التصور التوراتي للإله المحارب، والمعارك الإبادية التي خاضها بنو إسرائيل لا يأتي على ذكرها القرآن الكريم. وقد تحدث القرآن الكريم عن صراع بين طالوت وجالوت. وجبن بني إسرائيل وفرارهم من المعركة أمام جيش جالوت. أما فيما يتعلق بالملحمة التوراتية اليشوعية، فإن التوراة تنفرد بالحديث عنها.

وقد أكد الباحثون الآثاريون والمؤرخون عدم وقوع هذه الملاحم التوراتية اليشوعية وذلك بسبب عدم ورود أي دليل تاريخي أو أثري يدل على وقوعها.

وإذا كانت قد حدثت فإنها في كافة الأحوال تفصح عن العقلية التوراتية المتمسكة بالإله الخاص المحارب الذي يخص بني إسرائيل وحدهم.

التوراتيون والإشراك بالله

تحدثنا في صفحات سابقة عن التعددية في العقيدة التوراتية وكذلك عن الإله العنصري والقبلي، وكذلك تعرفنا على علاقة الإله التوراتي بالذهب، ثم تعرضنا لهذا الإله المحارب، الذي تصوره التوراة بالقائد العسكري والمخطط الحربي الاستراتيجي.

وفي هذه الصفحات نرى عقيدة التوراتيين وقد جعلت هذا الإله بين آلهة أخرى، ومن ثم افترض التوراتيون أن له ولدا أو أولادا. وما إلى ذلك من قضايا الإشراك بالله، التي تدل على العقلية التوراتية الأسطورية وتخلفها عن ديانة التوحيد.

ونستطيع أن نرى عدة اتجاهات للعقيدة التوراتية في هذا الاتجاه:

1 ـ الطغيان الأسطوري على العقيدة.

2 ـ الثنائية الإلهية بحيث يظهر الإله التوراتي ليس وحده في هذا الكون

3 ـ نسب بعض البشر لهذا الإله.

أما الطغيان الأسطوري فإنه يظهر في سفر التكوين بشكل كبير وفي الأسفار الأخرى بشكل موجز.

يرد في سفر التكوين: (وسمعا صوت الرب الإله ماشيا في الجنة عند هبوب ريح النهار. فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط شجر الجنة فنادى الرب الإله آدم وقال له أين أنت. فقال سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان فاختبأت) تكوين 3: 8 ـ 9 ـ 10.

وجاء في سفر التكوين: (وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفا الخير والشر. والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضا ويأكل ويحيا إلى الأبد فأخرجه الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أُخذ منها) تكوين 3: 22ـ 23.

ومن خلال هذين النصين نجد أن العنصر الأسطوري يطغى على كافة المفاهيم المطروحة وعندما نقول العنصر الأسطوري فإننا نعني به الاعتماد على عنصر الأسطورة المخالف لطبيعة التوحيد. فالله في النصين:

1 ـ مجسد يتمشى لا يعلم أين آدم وامرأته يختبآن، فيقول النص أين أنت هو سؤال استفهامي وليس سؤالاً استنكاراً. والدليل على ذلك تجسيد القدرة الكلية المطلقة بقدرة جزئية، أو بعجز واضح.

2 ـ وهو ليس له علم الغيب ولا القدرة على معرفة ماذا سيحصل مستقبلاً. لأن قول التوراة صار كواحد منا يعني أن آدم صار كالإله. ثم قولها لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة ...

3 ـ سبب كون الإله إلهاً يتجسد بالأكل من شجرة المعرفة وشجرة الحياة. فالله يبقى حيا لأنه أكل من شجرة المعرفة وشجرة الخلد وكل من يأكل منها يصبح مثله إلهاً. فهناك ثلاث صفات تنتقص من صفات الله الخالق.

وهي: أنه مجسد، وليس له علم بالغيب. ويخاف مما يتوقع حدوثه.

وهذه الصفات هي تخيل توراتي أسطوري لطبيعة الإله التوراتي. وهي تنم عن جهل في عقيدة التوحيد. وتنم عن إشراك بالله وبطبيعة الذات العلية له.

جاء في سفر التكوين: وحدث لما ابتدأ الناس يتكاثرون على الأرض وولد لهم بنات أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسناوات فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا. فقال الرب لا يدين روحي في الإنسان إلى الأبد. 6: 1 ـ 2

وتقول: (وبعد ذلك أيضاً إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولاداً. هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم) 6: 4

وجاء أيضا في التكوين: (ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض. وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم. فحزن الرب لأنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه. فقال الرب أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته) 6: 5ـ7.

ومرة أخرى فالنصوص تنفي عن الله العلم المسبق المحيط بكل شيء. غير أن ذلك لا يتوقف هنا بل تصف الله أن له أولادا. وتعجبهم بنات البشر فيهبطون من عليائهم ليتزوجوهن. فمن هم أبناء الله؟. هل تقصد التوراة جنس الملائكة؟ أم تقصد أن أبناءه بشر أو لهم صفات البشر ينكحون ويعاشرون النساء. فإذا كان المقصود الأول فإن النص لا يشير إلى أنهم ملائكة، ثم إن الملائكة أجسام نورانية ليس لها صفات البشرية فهي لا تشتهي وليس لها أعضاء تناسلية. وهي منزهة عن البشرية. لها طبيعتها الخاصة وإن كان المقصود أن لله أبناء وهذا ما يشير إليه النص. فهم كالبشر ولهم شهوة وأعضاء تناسلية يقدرون على ممارسة الجنس مع النساء.

وفي الحالتين فإن التوراتيين يقعون في دائرة الشرك والكفر. ويضعون طبيعة الله في دائرة الحس الأسطوري الذي تناقلوه عن أساطير الشعوب الوثنية ثم إنه لو كان لله أبناء فلماذا لا يكون له بنات؟ يتزاوجون أبناء وبنات وينجبون أولادا لهم طبيعة الآلهة، طالما أن العنصر الإلهي مفضل على العنصر البشري؟.

إن النص التوراتي يريد أن يقول إن لله أبناء محرومين من الجنس ومن النساء. ولا يوجد نساء إلا بين البشر فاختار أبناء الله التنازل عن عنصرهم الإلهي وأرادوا أن يمارسوا مع البشر بشريتهم المتجسدة فقط في إعجابهم بالنساء البشريات ومن ثم ممارسة الجنس معهن وإنجاب أولاد منهن.

وعلى هذا أيضا لا نستخلص أن الأطفال المنجبين سيكونون ذوي نصفين في الطبيعة أي أنصاف آلهة وأنصاف بشر؟ أليس هذا هو التراث الأسطوري الذي استفاده التوراتيون من أساطير الشعوب التي تؤلّه ملوكها وأمراءها وقادتها الكبار، وفي سياق الطغيان الأسطوري الدال على الإشراك بالله تصور الإله ذا مزاج متقلب وتصور أفعاله بسبب ردة فعل آنية.

وتقول التوراة: (وقال الرب في قلبه لا أعود ألعن الأرض أيضا من أجل الإنسان لأن تصور قلب الإنسان شرير منذ حداثته) تكوين 8: 21.

وتقول التوراة: (فنزل الرب لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونهما وقال الرب وهو ذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم وهذا ابتداؤهم بالعمل. والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض. فبددهم الرب من هناك على وجه كل الأرض فكفوا عن بنيان المدينة) تكوين: 11: 5-8.

ففي النص الأول يتضح أن الإله التوراتي صمم أن يقلع عن تدمير الأرض وإماتة البشر بعد أن يكون قد لعن الأرض لكثرة شرور بني البشر ووعد نوحا أن يبيد البشرية بالطوفان بعد أن أمره أن يبني فلكا يصعد فيه هو وأبناؤه.

أما النص الثاني ففيه أكثر من مظهر للإشراك بالله:

1- نزول الله من عليائه ليرى ماذا يبني هذا الإنسان.

2- غيرة الله من بني البشر لأنهم لسان واحد ويريدون بناء مدينة عظيمة.

ويتضح من خلال النص أن بني آدم لو ظلوا على لسان واحد وعمل واحد لفعلوا المعجزات التي من شأنها الخروج عن قدرة الله وتسييره للكون

3- قول التوراة هلم ننزل... فإما أن كلمة هلم هي قول الرب لنفسه بينه وبين ذاته أو أنها قوله لجنده وأمرٌ بالهبوط من السماوات العُلى إلى الأرض.

4- يفترض هذا النص أن الله ليس له علم مسبق بما سيؤول إليه الإنسان وعمله في الأرض وهذا أيضا يفترض أن الله لم يكن قبل أن ينظر إلى الأرض يعلم أن بني البشر راحوا يسعون لبناء مدينة وبرج في بابل. وبمعنى آخر فإنه كان ساهيا أو غافلا أو ما شابه ذلك. وهذا ما يدل بشكل قاطع على الشرك بالله والكفر بعظمته وقوته المطلقة. وقد ظهرت الوثنية بشكل مريع في نصوص التوراة. ويظهر أن تعدد الآلهة كان سمة بارزة لدى الشعوب آنذاك فمنذ النبي يعقوب تبدأ نصوص التوراة بالحديث عن الآلهة الأخرى من دون الله وكأنها أمر مسلم به، وكأن الإله واحد من هذه الآلهة. جاء في سفر التكوين: (فقال يعقوب

لبيته ولكل من كان معه اعزلوا الإلهة الغريبة التي بينكم) 35:2.

جاء في سفر الخروج: (الآن علمت أن الرب أعظم من جميع الإلهة) 11:18. وهذا القول جاء على لسان يثرون حمي موسى. وهو الذي وصفته التوراة بأنه رجل صالح وزوج ابنته للنبي موسى. . وقوله أعظم من جميع الإلهة، هو مقارنة بين الإله والآلهة الوثنية المصنوعة بيد البشر. وهذا غير صحيح لا بالمقارنة ولا في سياق الإيمان بالإله المنزه الواحد وقد جاء في سفر الخروج: (لا يكن لك آلهة أخرى أمامي. لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة ما مما في السماء من فوق وما في الأرض من تحت وما في الماء من تحت الأرض. لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأني أنا الرب إلهك إله غيور أفتقد ذنوب الأباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضيّ) 20: 3ـ5.

وجاء في سفر الخروج: (من مثلك بين الإلهة يا رب من مثلك معتزا في القداسة مخوفا بالتسابيح) 5: 11.

ونحن نريد أن نسأل مصنف هذا الكلام هل كان إله موسى بين الآلهة معتزا بالقداسة؟ وإذا كان كذلك فما موقعه فيما نبحث عنه في الأسفار الخمسة من الإشراك بالله. ويعلق عباس العقاد على ذلك بقوله: إن الوحدانية التي كان يدركها بنو إسرائيل في ذلك الزمن لم تكن وحدانية تفكير، ولكنها وحدانية تغليب لرب من الأرباب على سائر الأرباب. ولم يخط اليهود خطوة غير هذه الخطوة وهي أن لليهود إلها يعلو على آلهة غيرهم من البشر)[1].

وجاء في سفر التثنية: (لا تسيروا وراء آلهة أخرى من آلهة الأمم التي حولكم لأن الرب إلهكم إله غيور في وسطكم لئلا يحمى غضب الرب إلهكم عليكم فيبيدكم عن وجه الأرض) 6: 14ـ15.

ولقد أصبح التوحيد يعني الواحد بالمعنى الرياضي (اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد) تثنية 6: 4.

---

(1) عباس محمود العقاد. إبراهيم أبو الأنبياء. ص 60 دار الهلال القاهرة بدون تاريخ.

(ولما كان النصر في المعارك هو انتصار الإله على الآلهة الأخرى حسبما تمليه بيئة الطوطم الثقافية، قال الكهنة وهم يضاهئون أعدائهم (الآن علمت أن الرب أعظم من جميع الآلهة) خروج 18 : 11 كما قالوا لنفس السبب (إن الله قائم في مجمع الله في وسط الإلهة يقضي) مزامير 82 : 1 إنه زعيم الآلهة إنه أعظمهم، (من في السماء يعادل الرب من يشبه الرب بين أبناء الله) مزامير 6:89 (فلله أبناء والطريق إلى الألوهية أسهل)[1].

ومن هذا الذي تقدم نرى أن الإله التوراتي يدل على قصور عقل بني إسرائيل، والكتبة الذين دونوا هذا التوراة، لم يدركوا حقيقة التوحيد، ولا عرفوها. وهذا الذي أتوا به يتناقض كلياً مع ما أوحي إلى النبي موسى عليه السلام. ويتناقض حتماً مع نظرته كنبي موحد للذات الإلهية. ولو عدنا إلى القرآن الكريم نجد أن صفات الله كما عرفها موسى ليست هي صفاته التي وردت في التوراة المدونة. وطالما نسبوا للإله أبناء يتزوجون من بنات الناس في الأرض، فقد سهل عليهم أن ينسبوا عزيراً إلى الله فقالوا إن عزيراً ابن الله.

يقول الله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة : 30].

يقول الله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : 31].

والواقع أن القرآن الكريم يوضح لنا أن من آمن بعقيدة موسى قليلون جداً وإيمانهم كان خوفاً ولم يكن إيمان عقيدة.

---

(1) عمر لطفي النجار. العقل والإلحاد ص 143 مكتبة المبتدأ والخبر دمشق 1997 ط1.

يقـــول تعـــالى : ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [يونس : 83].

ويتضح أن المسافة بعيدة جداً بين فهم موسى عليه السلام لطبيعة الله سبحانه وبين فهم اليهود أو بني إسرائيل. ولذلك نجد أن موسى يتذمر منهم طوال دعوته بينهم. وقد نصت التوراة على هذا التذمر كما أن القرآن الكريم عرض لذلك في آياته البينات كما رأينا مما سبق.

تطور مفهوم الإله عند بني إسرائيل

بعد السبي البابلي حدث اندماج بين اليهود وبين البابليين. فكان لا بد من التأثير والتأثر. ولما كان الأقوى يؤثر بالأضعف فإن بني إسرائيل هضموا تراث البابليين العقيدي وحاولوا مجاراتهم العقيدية في كثير من أجزاء العقيدة.

ومنذ البداية عرفنا أن بني إسرائيل حملوا مفهوماً محدداً للإله الخاص بهم. وعندما استقروا مسبيين في بابل وجدوا أن الله الذي تمثلوه لم يكن سوى إله القومي صغير بالقياس إلى آلهة البابليين ولاسيما الإله الكبير مردوخ.

ولقد أدرك بعض أنبيائهم هذا التفاوت الكبير في طبيعة الفهم لذات الله، فكان لا بد من إعادة النظر فيها وصياغتها صياغة جديدة تتناسب مع تطور الفهم ذاته. لقد ظن بنو إسرائيل أن يهوه إله لا يقهر وشعبه لا يقهر. وعندما أصبح الانهزام أمراً واقعاً، وأصبح بنو إسرائيل أسرى بيد البابليين سقطت مفاهيم كثيرة ترتبط بالإله القوي يهوه. فشعبه يهزم ويسبى، ولذلك فإنه حسب رأي الكثير منهم إله مهزوم لا يقدر على الصمود أمام آلهة الشعوب

إن هذا ولّد لدى أنبيائهم ردود فعل نفسية وفكرية. فخرجوا بنظرة جديدة للإله. الإله الأعظم والأكبر، الإله الواحد الذي لا تحاربه آلهة ولا أصنام أو أوثان وقد تجلت هذه النقلة النوعية في مفهوم الإله منذ النبي إشعيا.

جاء في التوراة: (أنا الرب وليس آخر. لا إله سواي. أنا الرب وليس آخر، مصدر النور وخالق الظلمة، صانع السلام، أنا صنعت الأرض وخلقت الإنسان عليها) اشعيا: 45.

وتقول أيضاً: (هكذا يقول الرب خالق السماوات وناشرها، باسط الأرض ورازقها ومعطي الشعب عليها نسمة، والساكنين فيها روحاً... أنا الرب وهذا اسمي ومجدي لا أعطيه لآخر) إشعيا: 24-5-8.

وتقول أيضاً: (أنا الأول والآخر، ولا إله غيري، وكل شيء أنا أعلم به، أنا الرب صانع كل شيء. ناشر السماوات وحدي، باسط الأرض، من معي؟ مبطل آيات المخادعين، وممحق العرافين، مرجع الحكماء إلى الوراء، ومجهِّل معرفتهم، مقيم كلمة عبده، ومتمم رأي رسله) إشعيا 44.

وقبل إشعيا بقليل كان النبي إرميا من أكثر أنبياء التوراة نقداً لبني إسرائيل وعقيدتهم وهو الذي أسس تقريباً لمفهوم الإله العادل المنصف كلّي الجبروت.

جاء في التوراة أن يهوه أمره (أوصهم إلى سادتهم قائلاً: هكذا قال يهوه رب الجنود إله إسرائيل إني أنا صنعت الأرض والإنسان والحيوان الذي على وجه الأرض. وأعطيتها لمن حسن في عيني) إرميا 27: 4-5

وعند إشعيا الثالث تأكيد على أن يهوة ليس في شديد حاجة إلى المعبد (هكذا قال الرّب السماوات كرسي والأرض موطئ قدمي. أين البيت الذي تبنون لي وأين مكان راحتي) 66: 1

وعلى الرغم من هذا التحول فإن مفهوم الإله ظل معنياً به إله إسرائيل، وليس إله كل الشعوب. صحيح أنه حسب هذا التحول إله خالق السماوات والأرض والإنسان والحيوان لكنه ظل هو يهوه أي إله إسرائيل الذي يخص بني إسرائيل ويغضب على من سواهم.

ولم يستطع بنو إسرائيل التخلص من هذه النظرة، وقد انعكست على جميع

تصوراتهم، حتى تلك التي برزت بعد السبي البابلي واستمرت طويلاً إلى يومنا هذا.

إن من يعتبر اليهودية ديانة توحيدية يكون مخطئاً. لأن مستندها كما هو معروف تخيلات وتصورات وروايات كتبها أحبار اليهود أيام السبي البابلي. في ديانة أقرب إلى الوثنية. وتختلف كلياً عن عقيدة النبي موسى عليه السلام التي وصفها القرآن الكريم وبين فيها ذات الله المتنزهة عن التجسيم والتجسيد والمحدودية البعيدة عن الوثنية، والتعددية وما إلى ذلك مما تخيله مدونو التوراة.

تطور مفهوم الله عند فلاسفة اليهود

لم تخل العقيدة اليهودية من آراء فلسفية لعبت دوراً ما في تطور مفهوم الإله. فقد كان لهذه الآراء دور في نقد العقيدة اليهودية مما آلت إليه من تراكمات وثنية كثيرة وقد حاول بعض فلاسفة اليهود تحديد بعض المفاهيم المتعلقة بإله كذات.

وأقدم فلاسفة اليهود الذين وفّقوا بين النظرة الدينية والأفكار الفلسفية هو فيلون الإسكندري الذي ولد في السنة العشرين قبل الميلاد وتوفي بعد الميلاد بنحو سبعين سنة. وهذا يعني أنه عاش ما يقارب التسعين سنة. وقد اطلع فيلون على الفلسفة اليونانية وهضمها، واستطاع أن يصل إلى بعض الأفكار التوفيقية بين العقيدة اليهودية والفلسفة.

وتجلى نقده للتوراة والعقيدة اليهودية برفضه للصفات التي ألحقها كتبة التوراة بذات الله وقد رفض التجسيم والتشبيه. ورأى أن الله في وجوده الكامل المطلق أعلى من أن تحده صفة تدركها العقول. لقد تعلم فيلون من دينه أن الله ذات، وتعلم من الفلسفة أن الله عقل مطلق مجرد من ملابسات المادة.

وكان فيلون يرفض أقوال الرواقيين التي تشبه القول بوحدة الوجود، وتجعل الله من العالم والعالم من الله. ولكنه أيضاً كان يرفض مذهب أرسطو في تجريده الله عن المخلوقات وزعمه أن كمال الله يقتضي هذا التجريد. ويرفض فيلون زعم الزاعمين أن الله يحتويه مكان أو زمان لأنه محيط بكل مكان وكل زمان.

يقول (إن الله واحد ولكنه بقدرته خيّر وحاكم فبالخير صنع العالم وبالحكم يديره وثمة شيء ثالث يجمع بين القدرتين وهو الكلمة لأن الله بالكلمة يجود ويحكم. والكلمة كانت في عقل الله قبل جميع الأشياء. والواقع أن أقوال فيلون اليهودي كانت بمثابة ثورة دينية في بني إسرائيل. وقد أدت هذه الثورة إلى انقسام المجتمع اليهودي إلى قرائين ملتزمين بالنصوص وربانيين يجيزون التفسير والتوفيق بين النص ومعطيات العلم والفلسفة. وقد ظهرت بوادر هذا الانشقاق بعد فيلون بتسعة قرون أي في زمن شيوع الفلسفة الإسلامية واستفاضة البحث في مسألة القضاء والقدر على الخصوص لأنها هي المسألة التي استحكم عليها الخلاف بين القرائين القائلين بالقضاء والربانيين القائلين بالاختيار)[1].

وقد برز من بين اليهود الفيلسوف موسى بن ميمون القرطبي (1135 ـ 1204) وقد حضنته الحضارة العربية في الأندلس وبرع في الطب لكنه قرأ علوم الكلام وبحوث التوحيد الإسلامية واطلع على فلسفة اليونان باللغة العربية فألف كتابه الأول (دلالة الحائرين) وتناول فيه مسائل الفلسفة ببعض التفصيل، ولا سيما مسألة الذات والصفات ومسألة المعاني والنصوص. وقد نقد تفسيرات بعض الربانيين اليهود فيما نسبوه إلى الله وفسر النصوص تفسيراً مختلفاً عما عهدوه من التفاسير.

ففسر مثلاً قول التوراة (إننا نصنع إنساناً على صورتنا وشبهنا) بقوله: إن الناس قد ظنوا لفظ صورة في اللسان العبري يدل على شكل الشيء وتخطيطه فيؤدي ذلك إلى التجسيم المحض ورأوا أنهم إن فارقوا هذا الاعتقاد كذبوا النص. وقال عن صفات الله كلها: إنها وضعت بحسب الأفعال الموجودة في العالم. أما إذا اعتبرنا ذاته مجرداً عن كل فعل فلا يكون له اسم مشتق بوجه، بل اسم واحد مرتجل للدلالة على ذاته.

ويقول (تبرهن أن الله عز وجل واجب الوجود، لا تركيب فيه، ولسنا ندرك إلا آنيته لا ماهيته).

---

(1) عباس العقاد. الله في عقائد الشعوب صفحة 167.

ويقول: إن الله صورة العالم وسبب وجوده لأن وجود الباري هو سبب لكل وجود، وهو يمد بقاءه بالمعنى الذي يكنّى عنه بالفيض.

ويقول ابن ميمون بحدوث العالم: (أما أنا فأقول إن العالم لا يخلو من أن يكون قديماً أو محدثاً فله مُحدث بلا شك.

ويقول (الاعتقاد بأن الله ليس جسماً لا يعارض المعتقدات الدينية التي تقوم عليها الشريعة، في حين أن الاعتقاد بقدم العالم كما هو الحال عند أرسطو يقضي على أساس الشريعة أي أنه يثبت عدم الجسمية لله عز وحل ويثبت أن العالم حادث[1].

وخرجت لنا بحوث معاصرة قالت بأن فلسفة ابن ميمون تستند في غالبيتها إلى صوفية محي الدين بن عربي. وقد كشف بعض الباحثين الإسبان أن ابن ميمون قد سرق الكثير من فلسفة ابن عربي ونسبها إليه. فليس له الفضل في أي نظرة فلسفية حول العقيدة وخاصة تلك المرتبطة بذات الله وصفاته.

---

(1) دلالة الحائرين الفصل 25 ج2. نقلاً عن كتاب. نقد التوراة للدكتور أحمد حجازي السقا ص 55.